وقفات منهجية تربوية دعوية من سير الصحابة

رضي الله عنهم

تأليف فضيلة الشيخ الدكتور

عبد العزيز بن محمد السدحان حفظه الله


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إِنَّ الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ مِن شُرُورِ أَنفسنَا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله، فلا مُضلَّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أمَّا بعد:

فَإِنَّ الشريعة الإسلامية شريعة كاملة، وأحكامها شاملة لجميع شؤون العباد الدينية والدنيوية، فكل ما يُصيب المجتمعات البشرية على اختلاف أجناسها وألوانها و تباعد أقطارها، وكافة ما يحلُّ بها من النكبات والمصائب، ففي الشريعة علاج لها، ومخرج منها شريطة أنْ يكون الناظر في تلك الوقائع والحوادث ناظرًا بعين البصيرة في الأدلة الشرعيَّة، مدركًا مقاصد الشريعة السامية، وأهدافها النبيلة، عارفًا بمدلول ألفاظها، ومعانيها، حتى يستطيع فهم مراد النص الشرعي، وإلحاق ما لا نص فيه بما فيه نص حكم شرعي، كما فعل الصحابة الأخيار ن في عهدهم.

فقد حلَّت بهم ن نوازل كثيرة ومصائب جمة، ومع ذلك استطاعوا بفضل الله تعالى أولًا، ثم بفضل تمسكهم بالنَّص الشرعي ثانيًا، وجعله قائدًا وهاديًا ومرشدًا لهم، بذاك استطاعوا أنْ يُعالجوا كل قضية طرأت فِي عصرهم، وأن يأخذوا منافعها، وأن يدفعوا مضارها، وأن يسلموا من الإثم.

ولهذا السبب كان اختياري موضوع دروس من سير الصحابة الأخيار ن ومنهجهم عامةً، وفِي النوازل خاصةً، ومواقفهم منها دون غيرهم لخمسة أمور وهي:

أولًا: لسابقتهم في الفضل والديانة والإيمان ن، فهم أسبق النَّاس، وهذا اصطفاء من الله لا منازع لهم فيه، حكمة من الله، والله يؤتي فضله من يشاء.

وثانيًا: للتزكيات الإلهية لهم فِي كتابه العزيز، وهذا دليل على طهارة بواطنهم وسلامة سرائرهم ن من الغل والحقد والحسد.

وثالثًا: لمعاصرتهم التنزيل، فهم قد عاصروا التنزيل وكانوا مع النبي ﷺ فِي حِلِّه وترحاله، يرون أفعاله ويسمعون أقواله، فهم أبصر النَّاس بتفسير الوحي، وأدرى النَّاس بمراد النبي ﷺ.

ورابعًا: محبتهم والسير على منهجهم لسلامة المُعتقد، و سلامة منهج الداعية.

وخامسًا: لحدوث النوازل الكبيرة والفواجع الأليمة في زمنهم ن، فكانوا أهلًا لمقابلتهـا وكـانوا أهـلًا لدلالة النَّاس على المخرج السليم منها، فكانوا بذا، وذاك ــ بعد

الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ـأحق ّ منْ نعرف سيرهم، وندرس منهجهم القويم، وفهمهم الـسويَّ؛ لنقتفي آثارهم.

فَإِنَّ من رام سبيل الإصلاح وكان منهجه مُخالفًـا لـمنهج الـصحابة ن، ومـن سـار عـلى منـوالهم مـن التابعين، وتابعيهم رحمهم الله جميعًا إلى يوم الدين، فَإِنَّ دعوته في ضلال وإلى ضـلال!؟ وكيـف لا يكـون ذلك كذلك!! وهو قد خالف سبيل قوم عاصروا التنزيل وعرفوا مواقعه، وعرفوا مراد النبي ﷺ وتعاملوا مع قضايا عظيمة ونوازل جسيمة وخرجوا منها بالمخرج الصحيح، وقادوا الأمة إلى بر الأمان.

وإنَّ النَّاظرَ اليومَ فِي كثيرٍ من الحركات الإصلاحية مع اختلاف مناهجها وطرقها يدرك الفرق الكبـير والبون الشاسع بينهم، وبين منهج الصحابة ﷺ، ولعلَّ الجامع لذلك الفرق والمبـين لـه: أنَّ سُـبُل النَّجـاةِ والنَّجاحِ تُبْنَى على أمرين هما: المصدر الصحيح للتلقي، والمنهج السليم في الفهم والاستدلال.

فالمصدر المتفق عليه: عند المسلمين جميعًا هو الوحي الرَّباني المتمثل في الكتاب والـسنَّة، وهـو المـصدر الذي تشترك فِي الأخذ منه الفِرق الدَّاعية إلى الإسلام؛ لكنها تختلـف فِي تطبيقـه عِلْمِيًّـا وَعَمَلِيًّـا، وسـيأتي الحديث عن ذلك بشيءٍ من البسط والتفصيل فِي موضعه بـإذن الله، ونكتفـي الآن في هـذه المقدمـة بهـذه الإشارة العاجلة.

وسنتناول فِي هذا الكتاب إن شاء الله بعض مواقف جيل الصحابة الأطهار ﷺ فِي عدة وقفات يسبقها تمهيد فِي فضل العلماء، والحث على طلب العلم خاصة فِي مرحلة الشباب، ثمَّ توطئة فِيها التعريف بالصحابة ﷺ، وبيان ذكر أدلة مكانتهم، ثمَّ الشروع فِي الموضوع بذكر بعض مواقفهم والدروس التربوية المستفادة منها، وبيان منهجهم مع النصوص، وربطها بواقعنا المعاصر إسهامًا لرسم طرق الإصلاح السليمة لأحوالنا نصحًا لله ولرسوله وللمؤمنين عملًا بقوله ﷺ: ((**الدِّينُ النَّصِيحَةُ قُلْنَا لِمَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: للهِ وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**))[1].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث تميم الداري ﷺ في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة برقم ٥٥.

واقتداءً بنبي الله شعيب عليه السلام في قوله: ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هو: ٨٨] فمن الله أستمد العون والسداد إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وفي ختام هذه المقدمة أودُّ أن أبين أن أصل هذا الكتاب هو دروس من سير الصحابة الأخيار ﷺ ألقيتها في الدورة العلمية المقامة في مسجد شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ وذلك في عام ١٤٢٤هـ، وتم تسجيلها في أشرطة تسجيل صوتي في حينه، ثم قام الأخوة: فيصل سلطان الجودي بتفريغ الأشرطة وكتابتها يدويًّا، وقام الأخ نور الدين حامد بصفها على الحاسوب، ثم قام الأخ عبد المحسن بن عبد الله الهويشل بمطابقة المصفوف بأصله المسموع والمخطوط اليدوي، وقام الأخ عبده محمود زايد بتنزيل الآيات برسم المصحف وتخريج الأحاديث، وعزو أقوال العلماء لمصادرها، ثم صاغها الشيخ الأديب محمد الزاحم من أسلوب الخطاب الملقى إلى أسلوب الحطاب المقروء، فلهم مني جميعًا الشكر بعد شكر الله تعالى، لما بذلوه من جهد لإخراج هذا الكتاب، وأذكر ذلك من باب رد المعروف إلى أهله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد العزيز بن محمد السدحان.

تمهيد وتوطئة في بيان فضل العلم والعلماء.

إنَّ طلب العلم والسعي في تحصيله من أعظم القُربَات، ومن أرفع الدرجات وكيف لا يكونُ ذلك كذلك !! وهو الذي به يتفاضل النَّاس، ويرتفع بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة:١١] وبه فضَّل الله أقوامًا، وأعلى شأنهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فطر: ٢٨] ولم يأمر الله تعالى نبيَّهُ محمد ﷺ أنْ يطلب الزيادة من شيءٍ إلاَّ من العلم، كما قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه: ١١٤].

والعلم يعرف به العبد كيف يعبد ربَّهُ، ويمتثل أمره، و يجتنب نهيه، و يعرف به ما أحلَّ الله له مما حرَّم عليه، وللعلماء الذين يُبيِّنون للنَّاس الحلال والحرام مكانة عالية ومنزلة رفيعة،عند الله وعند خلقه، ولذا قال شرَّاح الحديث عند شرحهم لقول النبي ﷺ: ((**وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانِ فِي المَاءِ..[أو البحر]**)) [1] قالوا: ذكر الحيتان ؛لأَنَّ العالم يُعلم النَّاس حتى أحكام الحيوان ما يؤكل منه، وما لا يؤكل، ويُعلم النَّاس أيضًا تحريم تعذيب الحيوان، وإحسان القتلة وغير ذلك،من حسن التعامل مع الحيوان فضلاً عن الإنسان، فعلم العالم يتعدى نفعه حتى لدواب البحر، ومن ثم كانت تستغفر له.[2]

وكذلك قالوا: في قوله ﷺ: ((**وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ [لَيْلَةَ الْبَدْرِ] عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ**)). [3]

فقد ذكر ابن القيِّم في مفتاح دار السعادة: ((أنَّ هذا التشبيه من النبي ﷺ فيه البون الشاسع والفرق العظيم بين منزلة العالم المشبه بالقمر ليلة البدر، وبين منزلة العابد المشبه بالكوكب، ذلك أنَّ نور الكوكب لا يضيء إلاَّ على نفسه وعلى ما يقرب منه، أمَّا القمر فيملأ الدنيا نورًا، كذلك العالم يملأ المجتمعات علمًا،

---

(١) طرف من حديث أبي الدرداء ﷺ رواه الإمام أحمد في المسد (١٩٦/٥) والترمذي في جامعه في أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة برقم ٢٦٨٢، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم برقم٢٢٣، كذلك أخرجه مقتصرًا على موضع الشاهد فقط، في الكتاب المذكور، باب ثواب معلِّمِ الناس الخير برقم ٢٣٩، وصححه الألباني في صحيح الترغيب برقم ٦٨ (٣٣/١).

(٢) انظر/ فيض القدير للمناوي (٥٢٥/٥) بتصرف.

(٣) جزءٌ من الحديث السابق.

أمَّا العابد فعلمه وعبادته مقصورٌ عليه، وعلى بعض معارفه،[1] ومن هذا الـنَّصِ النبـوي وشرحـه، وغـيره من نصوص الكتاب والسنَّة ندرك مكانة العالم، وأهميَّةِ العلم والاهتمام به، وحث النَّاس عليـه لا سـيما في عمر الشباب.

فَإِنَّ شباب المجتمعات إذا كانت نشأتهم على علم شرعي مستمد مـن الكتـاب والـسنَّةِ، وفـق مـنهج سلف الأمة، فإنَّ ذلك من أعظم الظفر، ومن أعظم أسباب النصر لا لهم فحسب، بل لمجتمعـاتهم كُلِّهـا وللبشرية عامةً وما أجمل ما قال الشاعر يَذُم شبابًا أهملوا طلب العلم ونشئوا على غير تربية علميَّة:

إذا رأيت شبـاب الحي قـد نشـئوا * لا ينقلون قــلال الحـبر و الـــورقـا

ولا تراهم لدى الأشياخ في حلق * يعون من صالح الأخبار ما اتسقا

فدعـهم عنك واعـلم أنهم همـجٌ * قــد بــدلـوا بعلــو الهمـة الـحـمـقا[2]

وهذا شعر جميلٌ متضمن ما ينبغي أن يكون عليه الشباب من الحرص على طلب العلم، وأجمل منه قول النبي ﷺ فيما ثبت عنه ﷺ من حثه لشباب أمته على طلب العلم، والتفقـه فِي الـدين، وذلـك أكثـر مـن أن يحصى.

و لأنَّ مرحلة الشباب هي من أخصب مراحل العمر في الحياة، فإذا فرط فيها صاحبها وضيعها كان لمـا سواها أضيع، والمتصفح لدواوين السنَّة النبوية يرى كثرة الأحاديث المتضمنة لذكر هذه المرحلة في العُمُـر والحاثَّة على استغلالها، وبالْمثال يتضح الْمقال:

فمن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى فِي صحيحيهما عَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ رضي الله عنه قَـالَ: قَـالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ،إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَـابٌّ نَـشَأَ فِي عِبَـادَةِ الله** ..))[3] فعدَّ منهم شابًّا نشأ في طاعة الله تعالى.

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة (٦٩/١) طبعة دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان.

(٢) ذكر هذا السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء صفحة ١٥٣، ١٥٤.وانظر/ كتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ص٥٣، ٥٤، طبعة دار العاصمة بالرياض، الطبعة الثالثة عام ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

(٣) أخرجه البخاري في عدة مواضع، منها: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد برقم ٦٦٠، وكتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين برقم ١٤٢٣، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة برقم ١٠٣١.

وفيهما عَنْ عَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ((**يَا مَعْشَرَ الْـشَّبَابِ! مَـنْ اسْـتَطَاعَ مِـنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ، وأَحْصَنُ لِلفرجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَـاءٌ**))[1] ففـي هذا الحديث حثٌّ من النبي ﷺ على تحصين فروج شباب أمته.

ومن ذلك أيضًا ما أخرجه بعض أصحاب السنن أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: ((**لاَ تَزُولُ قَدَمَا [عَبْـدٍ] ابـن آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ الله حَتَّى يُسْـأَلَ عَنْ خَمْسٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ ..**))[2].

وفي لفظ عن أبي الدرداء، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ ((**لَنْ يَنْعَقِدَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَّامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ ...**)). [3]

وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**سَيأْتِيكُمْ شَبَاب من أقطـار الأرض [يتفقهـون في ديـن الله] يطلبون الحديث، فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيرًا، فإنَّهم وصية رسول الله ﷺ**)). [4]

وكذا ما جاء في الصحيحين عن مالك بـن الحـويرث ﷺ قَـالَ: ((**قَـدِمْنَا عَـلَى النَّبِـيِّ ﷺ وَنَحْـنُ شَـبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً**)) انظر كيف عُنِيَ النبي ﷺ بأمر هؤلاء مع عظيم مـسؤولياته من استقبال الوفود، وتسيير الجيوش، ومن تقسيم الصدقات على مستحقيها، ومن إجابة السائلين، ومـن تبليغ الوحي المبين، ومع هذا كُلِّه يقول الصحابي ـــ: ((**فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ نَحْوًا مِنْ عِـشْرِينَ لَيْلَـةً، وَكَـانَ [بِنَـا] رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا رَأَى شَـوْقَنَا إِلَى أَهْلِينَـا**)) فهـم ﷺ ذلـك بقـرائن أحـوالهم، و قَـالَ لهـم : ((**ارْجِعُـوا إِلَى**

(١) الوجاء: هو أن تُرَضَّ أُنثيا الفحل رضًّا شديدًا يذهب شهوة الجماع، ويتنزّل في قطعه منزلة الخصي، وقد وجئَ وِجاءً فهو موجوء، وقيل: هـو أن توجـأ العروق، والخصيتان بحالهمـا، أراد أن الـصوم يقطـع النكـاح كمـا يقطعـه الوجـاء، انظـر النهايـة في غريـب الحديث والأثر لابن الأثير صفحة ٩٥٩، بـاب الـواو مـع الجيم مـادة [وجـأ] طبعـة دار ابـن الجـوزي الطبعـة الثالثـة عـام١٤٢٥هـ، أخرجه البخـاري في كتـاب النكـاح، بـاب مـن اسـتطاع منـكم البـاءة فليتـزوج فإنـه أغـض للبـصر وأحـصن للفـرج بـرقم ٥٠٦٥، ٥٠٦٦، ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت إليه نفسه إليه ووجد مؤنهُ، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم برقم ١٤٠٠.

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود ﷺ في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ ، باب في القيامة برقم ٢٤١٦، وقد صححه علامة العصر في سلسة الأحاديث الصحيحة برقم ٩٤٦.

(٣) أخرجهما الطبراني في الأوسط برقم ٤٧٠٧، ٥٤٤٤. وأخرج حديث معاذ البيهقي في الشعب برقم ١٧٨٥، قال فيه المنذري في الترغيب والترهيب رواه الطبراني بإسناد صحيح (٢١٤/٤) .

(٤) باللفظ المذكور ورد في كتاب شرف أصحاب الحديث (٢١/١). وأصله عند الترمذي وابن ماجه ولفظه: عن أبي هـارون العبـدي قـال: كنَّـا نـأتي أبـا سـعيدٍ فيقـول: مرحبًـا بوصية رسـول الله ﷺ، إنَّ رسـول الله ﷺ قـال: ((إِنَّ النَّـاسَ لَكُـمْ تَبَـعٌ، وَإِنَّ رِجَـالاً يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا)) أخرجه في أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الاستبصار بمن يطلب العلم برقم ٢٦٥٠، وابن ماجه في المقدمة، باب الوَصاة بطلبة العلم برقم ٢٤٩.

أَهْلِيكُمْ،فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ،وَمُرُوهُمْ، فَـإِذَا حَـضَرَتْ الـصَّلاةُ فَلْيُـؤَذِّنْ لَكُـمْ أَحَـدُكُمْ، ثُـمَّ لِيَـؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ)) في لفظ: آخر عند البخاري: زاد ((**وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**))[1].

أقاموا عنده هذه المدة الطويلة بالنسبة إلى وقته ﷺ ولم يأمرهم بالانصراف إلاَّ بعد أنْ رأى المـصلحة فِي ذلك قيامًحق ِّ أهليهم، ومع هذا كُلِّه أوصاهم بالعلم قولاً وفعلاً.

وفي المسند عن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إِنَّ اللهَ عـزَّ وَجَـلَّ لَيَعْجَـبُ مِـنَ الـشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ**))[2]. الحديث ضعيف فِي إسناد ابن لهيعة،[3]؛ ولكـن معنـاه صـحيح ؛لأنَّ هـذه المرحلـة تقوى فيها الغريزة، تقوى فيها الدوافع إلى فتنِ الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، فإذا حصَّن الشاب نفسه واستمسك بالفضيلة، فإنَّه بفضل الله تعالى أولاً، ثم بما حصَّن به نفسه ثانيًا يسلم مما يَقع فيـه كثـيرٌ مـن الـشباب مـن الكبوات والصبوات.

ثُمَّ إنَّ القراءة في التراجم عامةً، وفي سير أهل العلم خاصةً من الأسباب النافعة، بل هي من القربات الجامعة لخيرٍ كثير لطالب العلمْ ولذا نرى الـمئات؛ بل الآلاف من كتـب الـتراجم سـواء المرتبـة حـسب التاريخ الزمني، أو حسب المذهب الفقهي، أو حسب التخصص العلمي كطبقات المفـسرين، أو طبقـات الفقهاء، أو طبقات القراء وما يتبع ذلك كثـيرة جـدًا، والقـراءة في الـتراجم وبالتحديـد في تـراجم أئمـة السلف، وعلى رأسهم جيل الصحابة ن تبعث العزيمة في النفوس وتشحَذُ الهمم، وتقوى جانب الطلـب، وهذا محسوسٌ بالمشاهدَةِ والسَّماعِ.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في عدة مواضع منها في كتاب الأذان، باب من قال ليؤذن في السفر برقم ٦٢٨، وفي باب الأذان للمسافر برقم ٦٣١، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة برقم ٦٧٤.

(٢) الصبوة: هي الميل إلى الهوى. انظر/ النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير صفحة[٥٠٨] باب الصاد مع الباء مادة [صبا] والحديث رواه الإمام أحمد في المسند (١٥١/٤) و أبو يعلى برقم ١٧٤٩ (٢٨٨/٣) والطبراني في المعجم الكبير (٣٠٩/١٧) برقم ٨٥٣، وعزاه إلى المسانيد الثلاثة المذكورة الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٠/١٠) برقم وحسن إسناده، وقال شعيب: في تحقيقه للمسند حسن لغيره.

(٣) وهو: أبو عبد الرحمن عبد الله بن لَهِيعة بن عُقْبَة الحَضْرَميُّ المصْرِيُّ، قال عنه الحافظ: صدوقٌ كان من أوعية العلم، اختلط لَمَّا احترقت كُتُبُه، من السَّابعة ورواية ابن المبارك و ابن وهب عنه أعدل من غيرهما،انظر/ ترجمته في الطبقات لابن سعد (٥١٦/٧)، وتهذيب الكمال (٤٨٧/١٥)، والسير(١٠/٨) والميزان (٤٧٥/٢)، والتقريب (٣٥٦٣).

قال بعض السلف: ((القراءة في سير الرجال أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه)) وهذا القول يؤثر عـن الإمـام أبي حنيفة النعمان / ومراده ــ والله أعلم ــ أنَّ الفقه يؤخذ من النقلة الثقات، وهـم أولئـك الفحـول مـن أئمة العلم من الصحابة ﷺ ومن سار على منوالهم وحذا حذوهم.

والصحابة ن كما تقدَّم أنَّهم أفضل جيل بعد الأنبياء والرسـل، ولـذا قـال بعـض أهـل العلـم فِي عـدِّ خصائص هذه الأمة المحمديَّةِ: ((أنَّ نبيها ﷺ أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنَّ كتابهـا أفـضل الكتب المنزلة على الأنبياء، وإذا كان ذلك كذلك، قالوا: تبعًا لـذلك ((وأنَّ صـحابة نبيهـا ﷺ ون أفـضل أصحاب الأنبياء فيكون الصحابة ﷺ في المرتبة الثانية في الفضيلة البشرية بعـد الأنبيـاء والرسـل علـيهم الصلاة والسلام.

ولَّما كان هذا الجيل بتلك المنزلـة العاليـة، والدرجـة الرفيعـة،أحببنا أن نقتـبس مـن سـيرهم العطـرة وأخبارهم الزّاكيَّة بعض المواقف المشرقة لبعض كبـار الـصحابة ﷺ وأرضـاهم لنقتـدي بهـم، فِي حياتنـا ومنهجنا الدعوي، وسنبدأ الآن بمعرفة الصحابة من هم ؟، وأدلة عدالتهم، وموقف أهل السنَّة منهم، ثم نتعرف على منهجهم في التلقي والاستدلال، وذكر بعـض مـواقفهم الخالـدة التـي حفظتهـا لنـا دواويـن التاريخ، وبالله التوفيق.

تعريف الصحابي

الصحابي في اللغة: مشتقٌ من الصُّحبة،التي هي مطلق المرافقة، فإنَّ كل من صحب غيره ينطبق عليه اسم الصَّاحب، والصُّحبة، وإن قلَّت المدة، ولو ساعة أو لحظة .[1]

واختلف العلماء في حدِّ الصحابي اصطلاحًا ؟من هو على أقوال:

والمشهور المعروف عند أهل الأصول والحديث أنَّه: ((من رأى النبي ﷺ في حال إسلامه مؤمنًا به))[2] وذكر بعضهم شروطًا لثبوت الصحبة: منها طول الملازمة والمصاحبة له ﷺ كأن يصاحبه سنة أو سنتين، ومنهم من شرط أن يغزو معه ﷺ غزوة أو غزوتين، ومنهم من شرط البلوغ حين رؤيته إلى غير ذلك من الشروط والضوابط التي ذكروها،وجميع التعاريف التي قيلت: في حدّه لا تسلم من اعتراض و مدخل للنقد، ولعل الرَّاجح من الأقوال ما قاله الحافظ ابن حجـــر / ــ في النخبة حيث قال: إنَّ **الصحابي هو:**

((من لقيَّ النبي ﷺ مؤمنًا به، ومات على الإسلام، ولو تخلل ذلك ردة على الأصح [3].

فهذا التعريف أشمل في حدِّ الصحابي ؛لأَنَّهُ يدخل من لقيه وطالت مجالسته له،أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يَرْوِ عنه، ومن غزا أو لم يغز، ومن رآه رؤية، ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالأعمى والأكمه.[4]

---

(١) قد ذكر هذا المعنى اللغوي عن القاضي أبي بكر الباقلاني عدد من العلماء منهم الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية صفحة[٥١/١] بتحقيق أبو عبد الله السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، والآمدي في الإحكام في أصول الأحكام [١٠٤/٢] طبعة دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى عام ١٤٠٤هـ بتحقيق د. سيد الجميلي، والنووي في مقدمة شرحه على صحيح مسلم في فصل: في معرفة الصحابي والتابعي [٤٠/١] اعتنى بها محمد عيادي بن عبد الحليم، طبع مكتبة الصفا بالقاهرة الطبعة الأولى عام ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م ، وتهذيب الأسماء للنووي أيضاً [١٦٤/٣] طبعة دار الفكر بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م، وغيرها من المراجع.

(٢) أكثر كتب المصطلح والمحدثين والمؤلفين في الصحابة يذكرون هذا التعريف من تلك الكتب على سبيل المثال شرح ألفية الحافظ العراقي التبصرة والتذكرة لزين الدين عبد الرحيم العراقي (٣/٢) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

(٣) هذا التعريف ذكره الحافظ ابن حجر، انظر/ شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الحديث و الأثر صفحة [١٤٥] طبعة دار علوم السنة بالقاهرة.

(٤) الأكمه: من خرج من بطن أمه لا يرى الكائنات أصلاً، والأعمى من طرأ عليه العمى بعد حين من عمره، انظر/ المصباح المنير مادة كمه الكاف مع الميم.

فقوله: ((من لقي)) أدق في التعبير بخلاف اللفظ الشائع في التعريف لفظ: ((من رأى)) لأنَّ لفظ ((من رأى)) يخرج من لا يرى كالأعمى، وإن كان في التعريف الأغلبي يشمله اللفظ، لكن الأدق ((من لقي)) فيشمل من يبصر بجارحة، ومن لا يبصر خلقةً، كالأكمه، أو طرأ عليه كالأعمى.

وقوله: ((مؤمنًا به)) يدخل في ذلك كل من آمن به، ولقيه من الإنس والجن: وهو قيدٌ يخرج به من لقيه كافرًا، ولو أسلم بعد ذلك إذا لم يره ثانيةً بعد إسلامه.

وقوله: ((ومات على ذلك)) مات مؤمنًا به ﷺ،أي: استمر على الإيمان به حتى وفاته.

وقوله: ((ولو تخلل ذلك ردة)) هذا قيدٌ فيه خلاف لبعض أهل العلم،فمجرد الردة عند بعضهم تحبط العمل في الحال، فتسقط عن المرتد صفة الصحبة، والأصح بقاء وُصف الصحبة له، إن رجع إلى لإسلام ثانية؛ لأنَّ الردة التي تُحبط العمل هي التي يستمر عليها صاحبها حتى الموت، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧] والله أعلم.

الأدلة على فضل الصحابة كثيرة جدًا جاءت في المنقول والمعقول منها:

أ ـ التزكية الإلهية لهذا الرعيل، والآيات في هذا الباب كثيرةٌ منها: قوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [التوبة:١٠٠] ففي هذه الآية أثنى الله على المهاجرين والأنصار، ووصفهم بالسبق إلى الخيرات، وأخبر بأنَّه قد رضي عنهم، وأعدَّ لهم جنات النعيم.

وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] ويكفي فِي عدالتهم رضا الله عنهم، ووصفه لهم بالإيمان

وقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ ﴾ [الفتح:٢٩] وفي هذه الآية وصفهم الله بالتراحم فيما بينهم، والشدَّةِ على الكُفَّار، ووصفهم بكثرة الركوع والسجود وصلاح القلب، وأنَّهُم يُعرفون بسيما الطاعة والإيمان، وأنَّ الله اختارهم لصحبة نبيه ﷺ ليغيظ بهم الكفار.

وقوله تعالى: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٨، ٩] وفي هذه الآية وصف المهاجرين بترك أوطانهم وأموالهم من أجل الله ونصرة دينه وابتغاء فضله ورضوانه، وأنَّهُم صادقون في ذلك، ووصف الأنصار بأنَّهم أهل دار الهجرة والنصرة والإيمان الصادق ووصفهم بمحبة إخوانهم المهاجرين، وإيثارهم على أنفسهم ومواساتهم لهم، وسلامتهم من الشح وبذلك حازوا الفلاح.

فقد أثنى الله عليهم فِي هذه الآيات وغيرها من الآيات الكثيرة في هذا الباب.

ب: التزكيات النبوية:

سواء كانت لجميعهم، أو لبعض جماعتهم، أو لبعض آحادهم، كما في قوله ﷺ: ((**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**،)) اشتهر عند الناس بلفظ: ((**خَيْرُ الْقُرُونِّ قَرْنِي**)) ؛ ولكن الصواب رواية: ((**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** ...)) [1] الحديث.

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أخرجه البخاري في عدة مواضع في صحيحه منها في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم برقم٣٦٥١، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم برقم٢٥٣٣..

وكذا قوله ﷺ: ((**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ**)) رواه مسلم.[1]

وأيضًا قوله ﷺ: ((**.. وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَايُو عَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ**))[2] فهذا تفضيل وثناء من النبي ﷺ للصحابة بعمومهم.

ومما جاء فِي تزكية بعض جماعتهم قوله ﷺ فِيحق الأنصار ن: ((**الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلاَّ مُؤْمِنٌ وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ مُنَافِقٌ**)).[3]

ومن أمثلة تزكية بعض الأفراد ن ما سيأتي ذكرهم كالصديق والفاروق وغيرهما رضوان الله عليهم أجمعين.

ج: الدليل الثالث من المنقول:

انعقاد الإجماع على عدالة الصحابة جميعًا ن دون استثناء، فلهم فضل الصحبة، ولهم سابق الديانة والإسلام[4].

د: الدليل الرابع من المعقول، والفطرة:

أمَّا المعقول: فَيُقَالُ: إنَّ العقول السليمة توجب عدالتهم، كما أوجبتها النقول الصحيحة؛ لأنَّهم قوم آثروا ولم يستأثروا، قوم قدموا أنفسهم وأموالهم وهجروا أوطانهم ابتغاء مرضاة الله تعالى، ونصرة نبيِّه عليه الصلاة والسلام، فالعقول توجب عدالة مثل هؤلاء القوم.

كذلك الفطر السليمة تطمئن إلى سلامتهم، وفضلهم، وإلى عدم المساس بأحد منهم.

---

(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه في كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سبِّ الصَّحَابَةِ برقم ٢٥٤٠، وقد أخرج هذا الحديث من حديث أبي سعيد ﷺ، البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً برقم ٣٦٧٣، ومسلم في الكتاب والباب المذكورين برقم ٢٥٤١.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ، في كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة برقم ٢٥٣١.

(٣) متفق عليه من حديث البراء بن عازب ﷺ، أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار من الإيمان برقم ٣٧٨٤، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته برقم ٧٥.

(٤) انظر/ فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل، ص ١٨ بتحقيق الدكتور وصي الله عبا س / الطبعة الثانية بمطبعة دار ابن الجوزي طبع عام ١٤٢٠هـ الموافق ١٩٩٩م.

وبما نقلناه من نصوص الكتاب والسنَّة، وموافقة العقل السليم، والفطرة المستقيمة، نعلم مكانة الصحابة ن وعدالتهم، ومع هذا كُلِّه هناك من خاض فِيهم بالباطل وحاول النيل منهم، وهذا ما سنعرفه في المبحث الآتي:

أقسام الناس في الصحابة

اختلف النَّاس من أهل الملة فِي الصحابة ﭫ:

منهم من زكاهم عامَّةً واستثنى أهل الجمل وصفين، كبعض أهل الاعتزال.[1]

ومنهم من قدح في أكابرهم؛ بل وفِي جميعهم كأكثر شراذم الرفض، وقوم نقيض هؤلاء قدحوا في آل البيت وهم: النَّواصب، وهؤلاء الفرق الخائضة كلها على ضلال.

وقد وفق الله تعالى أهل السنَّة والجماعة، إلى الاعتدال والإنصاف فتوسطوا بين الغلاة والجفاة فِي شأنهم، وكما هو منهجهم فِي جميع الأمور، فهم وسط كوسطية دين الإسلام بين الأديان،وكوسطية الأمة بين الأمم، فقالوا: بأنَّ جميع الصحابة عدول، وأنَّ حبهم من الدين والإيمان، وقد نص الإمام الطحاوي / على معتقد أهل السنَّة فِي الصحابة بقوله: ((ونُحِبُّ أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حبِّ أحدٍ منهم، ولا نتبرأُ من أحدٍ منهم،نوبغض من يبغضهم، و بغير الحق ِّ يذكرهم، ولا نذكرهم إلَّا بخير، وحبهم دين، وإيمان وإحسان، و بغضهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيان)).[2]

فأهل السنَّة والجماعة عقيدتهم محبة جميع الصحابة ﭫ دون إفراط أو تفريط، ويرون: أنَّ من سلامة معتقد الرجل محبة الصحابة جميعًا ﭫ، وأَنَّ القدح في أحد الصحابة قدح في معتقد ذلك القادح، وقد جاء في الحديث: ((**الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلاَّ مُؤْمِنٌ وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ مُنَافِقٌ**)) .[3]

---

(١) انظر/ المنهل الراوي لمحمد بن إبراهيم بن جماعة (١١٢/١) بتحقيق محي الدين عبد الرحمن رمضان الناشر دار الفكر بدمشق الطبعة الثانية عام ١٤٠٦هـ.

(٢) انظر/ شرح العقيدة الطحاوية للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي (٧٠٤/٢) بتحقيق وتعليق وتخريج أحاديثه مع التقديم د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرنؤوط ـ طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان ، الطبعة الثانية الإصدار الثاني عام ١٤٢٤هـ ٢٠٠٥م.

(٣) متفق عليه سبق تخريجه.

فَإذا كان الأنصار وهم في المرتبة الثانية بعد المهاجرين لا يحبهم إلاَّ مؤمن، ولا يبغضهم إلاَّ منافق، فكيف بمن أبغض أكثر الصحابة، أو أكابرهم رضي الله تعالى عن جميع الصحابة، ولهذا قال: أبو توبة الحلبي[1] كلمة جميلة، قال:

((معاوية ستر لأصحاب النبي ﷺ، فإذا انكشف الستر ــ أي: فتح الباب ــ اجترأ على ما وراءه))[2] بمعنى: أنَّ من قدح في آحاد الصحابة، فإنَّ لازم هذا القدح أن يفتح به باب القدح في جميع الصحابة ن حتى ولو لم يقدح فيهم، فإنَّ من لازم قوله: الإثم ؛لأنَّ من قدح،ــ كما قالوا ــ: فِي واحد من الأنبياء عليهم السلام، فقد قدح فِي جميعهم يعني: أنَّ محبتهم يجب أنْ تكون كاملة للجميع، وإن كانوا يتفاوتون في الفضل والمنزلة إلاَّ أنَّ القدح في أحدهم كالقدح في جميعهم.

فالحذر الحذر من الوقوع فِي النيل منهم تصريحًا أو تلميحًا،لسلامة المعتقد، وسلامة المنهج والمسلك، وقبل الحديث عن بعض مواقف الصحابة الكرام ينبغي أن نعرف أولاً مصدر التلقي، ومنهج الاستدلال، ثم نتحدث عن الدروس التربوية والمنهجية من بعض مواقف الصحابة الأخيار ﭫ .

****

(١) أبو توبة، هو: الربيع بن نافع الحلبي، انظر/ ترجمته في مختصر تاريخ دمشق(٣٣٥٠/١) والبداية والنهاية لابن كثير(١٣٩/٨).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٠٩/٥٩)، والبداية والنهاية لابن كثير(١٣٩/٨).

منهج التلقي والاستدلال

إنَّ معرفة مآخذ الأدلة ومصادرها، وكيفية الاستدلال بها أمرٌ مُهِمٌ وبخاصةٍ لكل من أراد دعوة النَّاس على بصيرة، فلا بدَّ له من معرفة هذه الأمور، ولعلنا نلخص ذلك في أمرين هما:

الأمر الأول: مصدر التلقي. والأمر الثاني: منهج الاستدلال وطرقه.

منهج التلقي: هو المصدر الذي تؤخذ منه الأدلة وتستقى منه النُّصُوص، نرى أن كثيرًا ممن يدعون إلى الإسلام يتفقون في الأخذ من المصدرين الأساسين: الكتاب والسنَّة، إلاَّ أنَّ بعض الطوائف والفرق تزيد عليهما مصادر أخرى كالعقل، ويجعلونه مصدرًا أساسيًا في مقام الكتاب والسنَّة؛ بل ومقدمًا عليهما في بعض المواطن، وهذه سمة مدرسة الاعتزال: التي تلبس هذا الثوب وترد أخبار الآحاد، أو بعضها ـــ بزعمهم أنَّها تخالف العقل ـــ وإنْ جاء النَّص وثبت به الإسناد حاولوا ليَّ عُنق النَّص بتأويله، فإنْ أعيتهم الحيلة فِي تأويله، ارتدوا على الراوي ووهموه بالخطأ والكذب.

ومدرسة أخرى: تزيد على المصدرين الذوق والكشف والخواطر والمنامات، فيما زعموا، وهذه سمة مدرسة التصوف، وزعماء الصوفية: هم المعنيون بهذا الأمر فِي الأخص، فقد جعلوا المنامات والهواتف والخواطر حُجَّة في مقام الدليل من الكتاب والسنَّة، يقول أحدهم: حدثني قلبي عن ربي، هكذا مباشرة دون واسطة، وهتف بي هاتف، وقال لي:...، ورأيت في المنام ... فيشرع من الأذكار والعبادات ما خطر على قلبه، فضلوا وأضلوا كثيرًا ممن اغتر بهم.

أمَّا الأمر الثاني: وهو منهج الاستدلال:

فبعض الفرق تأخذ بالآيات القرآنية والنُّصوص النبوية؛ لكن كما سبق التنبيه في المقدمة يجعلون العقل قائدًا، والنَّص مقودًا، فإذا جاءت الآية أو الخبر النبوي مخالفًا لما يقتضيه العقل ـــ الذي زعموا ـــ جعلوا العقل متبوعًا والنَّص تابعًا، ولاشك ولا ريب أنَّ هذا عين الضلال وطمس البصيرة، أن يأخذ الاستدلال ماله دون ما عليه، وهذا منهج أهل البدع.، قال بعض أئمة السلف: ((أهل السنَّة يأخذون ما لهم، وما عليهم إن كان الحق لهم فرحوا به، وإنْ كان القول عليهم، فحيهلا بالحق الذي يزيل باطلًا، ويكشف خللًا، أمَّا أهل البدع: فيأخذون ما لهم دون ما عليهم)).

كذلك من الخلل في منهج الاستدلال: عدم التفريق بين النَّص الخاص والعام والمطلق والمقيد، وبين الصحيح والضعيف، فهذا يحصل به اللبس والخلل في الاستدلال؛ لأنَّ من لم يعرف هذه الأمور التي لا تُفهم النُّصوص إلاَّ بها رواية ودراية[1] ثم تَصدَّر ولبس ثوب الفتيا، وتولى توجيه النَّاس، فلا شك أنَّه يهدم ولا يبني، ويفسد ولا يصلح.

ومن طرائف ما يذكر في هذا المقام في هذه المناسبة ما ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام: ((أنَّ عليًّا ﷺ دخل السوق، وإذا برجل يفتي النَّاس، فقال له عليٌّ ﷺ: أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال: لا. قال: من أنت ؟، قال: أنا أبو يحيى، قال: أنت أبو اعرفوني، ثم طرده من السوق))[2].

لأنَّ جهله بهذا الأمر سيوقعه في خلل كبير، إذن من الخلل فِي منهج التلقي والاستدلال: أن يتولى الإنسان توجيه النَّاس، وفُتيا النَّاس وهو لا يعرف مثلاً الحديث رواية ولا دراية.

ولهذا تجد أنَّ ما أصاب كثيرًا من الدعوات الإصلاحية والحركات الدَّاعية إلى إصلاح مجتمعات المسلمين من الخلل والشطط والنكبات، إِنَّما هو:

أولًا: لحكمة وتقدير من الله العلي القدير فإنَّ جميع أفعال الله جلَّ وعلا لا تكون إلا لحكمة، أدركناها أو لم ندركها نؤمن بها.

وثانيًا: إذا بحثنا عن السبب الرئيس وجدنا أنَّها تفتقر إلى ذلك المنهج الموفق في التلقي، وكذا في الاستدلال والفهم للنُّصوص الشرعية.

وعودًا على بدء، إذا علمنا أنَّ الصحابة ن هم أفضل جيل وطئ الثرى بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فإنَّ تلك الثلة المباركة المقدمة فِي الديانة والإيمان تتفاوت في الفضل والمنزلة بحسب سبقهم إلى الإسلام والجهاد والهجرة فَيَفْضِل المهاجرون على الأنصار، وأهل بدر، و بيعة الرضوان على غيرهم، ويفضل من أسلم قبل الفتح وقاتل على من أسلم بعد الفتح وقاتل وهكذا، وكلًا وعد الله الحسنى.

---

(١) المراد بعلم الرواية: علم الحديث والإسناد من حيث الصحة والضعف وما يتعلق بالأسانيد والعلل وطبقات الرواة، وعلم الحديث دراية: فقه النصوص، واستنباط الحكم والأحكام منها، انظر/ تدريب الراوي في شرح تقريب النووي لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي [١/٣، ٤].

(٢) انظر/ الناسخ والمنسوخ لابن سلامة [١/١] والناسخ والمنسوخ لابن حزم [١/٥] والاتقان في علوم القرآن [١/٢٥٢].

بعد هذا سيكون الكلام أولاً عن سيِّد الصحابة بعد موت النَّبِيِّ ﷺ وهو أبو بكر الصديق [١] خليفة رسول الله ﷺ.

تفاضل الصحابة رضي الله عنهم

الصحابة رضي الله عنهم يتفاضلون، والتفاضل يكون بين السور والآيات في كتاب الله جلَّ وعلاَّ، ويكون في الزمان، والمكان، والشأن وبين بني الإنسان؛ ولكن الضابط في التفاضل أن يكون بالنَّص الشرعي.

فمثلاً في كتاب الله تعالى لو قال: قائل: بأنَّ قراءة هذه الآية أفضل من قراءة هذه الآية وأكثر أجرًا، يُقَال لَهُ: هذا القول الأصل عدم قبوله إلاَّ بدليل، ومذهب أهل السنَّة، كما قرره شيخ الإسلام في رسالته القيمة: ((جواب أهل العلم والإيمان فيما أخبر به رسول رب الرحمن من أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القران)) [٢] قرر في تلك الرسالة بعد بحث مستفيض أنَّ كلام الله تعالى يتفاضل، فآية الكرسي أفضل من غيرها من الآيات، وسورة الفاتحة أفضل من غيرها من السور، وهكذا..، قُبِلَ منه.

كذلك لو قال: قائل مثلا بأنَّ الصلاة في هذا المكان أفضل من ذلك المكان إذا كان التفضيل بالنسبة لرائحة البقعة، أو لنوع المصلى عليه، فهذا لا إشكال فيه، أمَّا إذا كان التفضيل بالزيادة في الأجر، فلا يقبل التفضيل إلاَّ بدليل من الشرع.

---

(١) هو: أبو بكر عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي يلتقي نسبه بنسب النبي ﷺ في مرة بن كعب وهو الجد السادس للصديق رضي الله عنه ولد بمكة بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر تقريبا أي:قبل [٥١] سنة من الهجرة، وكان من سادات قريش ومن أغنيائها الموسرين، عالماً بأنساب القبائل وأخبارها ،وكان يلقب بعالم قريش، وهو أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال، ورفيقه ومؤنسه في الهجرة ثاني اثنين إذ هما في الغار أفضل الأمة وخيرها ، شهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها ، واحتمل في سبيل الله الشدائد وبذل الأموال، بويع له بالخلافة يوم أن التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى سنة [١١] وهو أول الخلفاء الراشدين، قام بمحاربة المرتدين، ومانعي الزكاة، وافتتحت في إمارته بلاد الشام وقسم كبير من العراق، وصفه الخَلقي كان أبيض نحيفاً خفيف العارضين معروق الوجه ناتئ الجبهة جعداً مشرق الوركين خطباً لساناً عارفاً بوجوه الكلام شجاعًا ، توفي لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة [١٣هـ] وهو ابن [٦٢] سنة ، وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، وقيل: وعشرة أيام. انظر/ لمزيد من سيرته وترجمته طبقات ابن سعد [١٦٩/٣] وأسد الغابة في معرفة الصحابة [٢٠٥/٣] والاستيعاب [٢٤٣/٢] .وسير أعلام النبلاء للذهبي [٤١٥/٢/١] طبعة المكتبة التوفيقية. وغيرها من المصادر والمراجع، التي ألفت في ترجمته رضي الله عنه.

(٢) انظر/ مجموع الفتاوى [١٧/ ٥].

فقوله: فهذه البقعة أفضل من تلك البقعة إذا كان التفضيل من حيث الشريعة، فلا بدَّ من الدليل، ولهذا قيل: إنَّ الصف الأول أفضل من الصف الثاني لثبوت النَّص الصحيح الصريح بذلك، وكذا فيما قيل في أنَّ ميمنة الصف أفضل من ميسرته لورود الحديث بتفضيل الميمنة على الميسرة.

وهنا فائدة استطرادية: تفضيل يمين الصف على ميسرته لعموم فضل شرف جهة اليمين، وكذا لقول البراء بن عازب ﷺ : ((كُنَّا نَتَحَرَى أَنْ نُصَلِّي عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ)) [1].

أمَّا ما اشتهر في كتب الفضائل من حديث أبي داود عن عائشة رضي الله عنها: ((إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِنِ الصُّفُوفِ)) .[2] فقد بيَّن بعض أهل العلم، وعلى رأسهم من المتأخرين محدث الشام، بل محدث الإسلام الألباني / أنَّ هذه الرواية معلولة، وأنَّ الصواب: ((**إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ**)).

وأمَّا لفظ على ميامن الصفوف، فقد ذكر الشيخ وغيره أن في إسناده معاوية بن هشام القصار خالف الرواة الذين رووه بلفظ: ((**عَلَى الَّذِينَ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ**)).[3]

تفاضل الزمان

وكتفاضل النَّاس والأمكنة تتفاضل الأزمنة كذلك، فلو قال: قائل: بأنَّ هذا اليوم الخميس أفضل من الخميس الماضي قيل له: من حيث ماذا هذا التفضيل ؟ فإنْ قال: من حيث جمال الجو مثلًا فهذا التفضيل جائزأ أمَّا إذا قال: هذا أفضل وأكثر أجرًا ؛لأنَّه في الثلث الأخير من الشهر مثلاً، يُقال له: لا يُقبل هذا الكلام إلا بدليل، وإلَّا فأنت آثم لأنك تخص زمانًا بفضل شرعي لم يأت به دليل؛ لكن لو قال: إنَّ صيام الخميس أفضل من غيره لورود الدليل بذلك قُبِلَ منه، وكذا صيام يوم الإثنين والأيام البيض أفضل من غيرها لمجيء الدليل، وكذا الجمعة أفضل من غيرها من أيام الأسبوع لمجيء الدليل بذلك، فهذا التفضيل للزمان يقبل منه لموافقته الدليل.

---

(١) أخرجه عبد الرَّزاق في مصنفه في كتاب الصلاة، باب فضل ميامن الصفوف برقم ٢٤٧٨، ولفظه: ((**يعجبني أن أصلي مما على يمين النبي ﷺ ؛لأنه كان إذا سلم أقبل علينا، أو قال: يبدؤنا بالسلام**)).

(٢) أخرجه في كتاب الصلاة، باب الصفوف بين السواري برقم ٦٧٦، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ،باب فضل ميمنة الصف برقم ١٠٠٥

(٣) سبق تخريجه.

تفاضل النَّاس

تفاضل بني آدم، وهو الشاهد من الحديث عن التفاضل، فأقول: الصحابة ﷺ في مرتبة الصحبة كلهم سواء تشملهم الفضيلة ؛لكنهم يتفاوتون في الفضل، فالمهاجرون أفضل من الأنصار في الجملة، والعشرة المبشرون أفضل من المهاجرين، والأربعة أفضل العشرة، والشيخان أفضل من عثمان وعلي رضي الله عنهما وأبو بكر ﷺ أفضل من عمر ﷺ ونحو ذلك.

وبهذا نَعلمُ جميعًا كما تقدَّم وتقرَّر أنَّ الصديق ﷺ أفضل الصحابة ﷺ ؛ بل أفضل البشرية مطلقًا بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فقد جاء وصفه بالصدق ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣]،[1] كما جاء النَّص بوصف الصديق ﷺ بالصحبة في القرآن الكريم، كما ذكر ذلك بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠]، وكما جاء وصفه بالصاحب في قوله ﷺ : ((هَلْ أَنْتُم تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي، هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي)) وذلك لما جاءه الصديق ﷺ مغضبًا من عمر الفاروق ﷺ[2].

وقالوا: في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢]

أَنَّها نزلت في الصديق ﷺ لَمَّا حلف على أن يقطع النفقة عن مسطح بن أثاثة ﷺ ابن خالته ﷺ وهو من الفقراء المهاجرين،الذين كان الصديق ﷺ ينفق عليه، وعلى غيره، وذلك لما خاض مع الخائضين في

---

(١) انظر/ تفسير جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري [٢٣/ ٢٨٩] وروح المعاني وتفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي [١٧/٤٧٠] وفتح القدير للشوكاني [٦/٢٨٦] وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي الدرداء ﷺ في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذا خليلا برقم ٣٦٦١، وفي كتاب التفسير، باب ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨] برقم ٤٦٤٠.

قصة الإفك في شأن الطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة ك ، وأنزل الله براءتها في كتابه العزيز، وتاب مسطح فتاب الله عليه، وأقيم عليه حدُّ القذف، فنزلت هذه الآية في استعطاف الصديق ﷺ لرد النفقة: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فقال الصديق ﷺ: بلى والله إنَّا نُحب أن يغفر الله لنا، فردَّ عليه نفقته.

كذلك قيل: في قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ [الليل:١٧] أنَّها نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ.[١]

والنَّبيُّ ﷺ يقول فيه: ((**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ..**))[٢].

ويقول ﷺ: ((**لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ الأُمَّةِ بِإِيمَانِ أَبِي بَكْرٍ لَرَجَحَ إِيمَانُ أَبُو بَكْرٍ**))[٣] و قال ﷺ: ((**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ الله ...**))[٤]

وفي لفظ آخر: ((**أَرْأَفُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ**))[٥] وبهذه النُّقول وغيرها من الكتاب والسنَّة نفهم أنَّ أبا بكر الصديق ﷺ أفضل البشرية مطلقًا بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لكثرة النصوص

---

(١) انظر/ لأقوال المفسر ين في الآيات المذكورة في شأن الصديق ﷺ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٥٥/٣، ٣١/٤، ٤٢٢/٥) تحقيق سامي بن محمد السلامة ـ طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع ـ بالرياض الإصدار الثاني الطبعة الثانية عام ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد برقم ٤٦٦، وفي كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر ﷺ برقم ٣٦٥٤، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ برقم٢٣٨٢.

(٣) هذا الخبر ورد مرفوعاً وموقوفاً عن عمر وابنه ﷺ أمَّا اللفظ المرفوع فقد روي عن ابن عمرﷺ ذكره ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (٢٠١/٤) ترجمة رقم ١٠١٢، والذهبي في ميزان الاعتدال(١٣٩/٤) ترجمة رقم ٤٤٣١ ،وابن حجر في لسان الميزان(٣١٠/٣) ترجمة رقم ١٢٨٢، وأمَّا الموقوف فقد ذكره السخاوي وقال: رواه إسحاق بن راهوية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح، انظر/ كشف الخفاء للعجلوني (٢١٦/٢) ترجمة رقم ٢١٣٠، وانظر/ الشعب (٦٩/١) برقم ٣٦، وفضائل الصحابة لابن حنبل (٤١٨/١) برقم ٦٥٣، والسنة لعبد الله بن أحمد (٣٧٨/١) برقم ٨٢١. والأثر صحيح موقوفًا على عمر بن الخطاب ﷺ.

(٤) روي هذا اللفظ من حديث أنس بن مالك ﷺ أخرجه الترمذي في أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ،باب مناقب معاذ، وزيد، وأبي، وأبي عبيدة ﷺ برقم ٣٧٩١، ٣٧٩٠، وقال هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب المناقب، باب٢٨ أبي بن كعب ﷺ برقم ٨٢٤٢، وفي باب ٤٦ ،زيد بن ثابت برقم٨٢٨٧.، وابن ماجه في كتاب المقدمة، باب فضائل صحابة آخرين برقم ١٥٤.وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم ١٢٢٤.

(٥) هذا اللفظ روي عن ابن عمر ﷺ أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب معرفة الصحابة برقم ٦٢٨١ (٥٣٥/٣)، كما أخرجه أبو يعلى في مسنده برقم ٧٥٦٣. والبيهقي في السنن الكبرى برقم ١١٩٦٧.

الواردة في فضله ﷺ، ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ / ـ في المنهاج: ((أبو بكر أفضل الأئمة، وأمته أفضل أمة بعد النبي ﷺ)).

فالصديق ﷺ قد حاز من المكارم أعلاها وارتفع إلى منازل الفضيلة وأخذ بقصب السبق فِي الإسلام، وفِي الجهاد المالي والجهاد البدني، وفِي العلم، وفِي فضل الصحبة للنبي ﷺ وفِي ملازمته له فِي حِلِّهِ وترحاله، وكان ﷺ أقربهم منه فِي حياته وبعد مماته وجاء ت فضائله كثيرةٌ منها ما تقدَّم، ومنها ما يأتي:

أَنَّهُ ﷺ أحبُّ النَّاسِ إلى النَّبيِّ ﷺ، **قَالَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ ﷺ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: ((عَائِشَةُ)) فَقُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ ((أَبُوهَا)) .قُلْتُ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ((عُمَرُ)) فَعَدّ رِجَالاً ....))** متفق عليه.[1]

بل وخصَّهُ النَّبي ﷺ بفضائل لم يشركه فيها أحدٌ من الصحابة ن كقوله ﷺ: ((**سُدُّوا كُلَّ خَوْخَةٍ [في المسجد] إلاَّ خَوْخَة أَبِي بَكْرٍ**))[2] . قال بعض العلماء وفي هذا إشارة إلى خلافته ﷺ.[3]

وكذلك في قوله ﷺ: ((**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**)) وذلك لَمَّا جاءته امرأة تسأله فأمرها أن ترجع إليه، قالتْ: أرأيت إن جئتُ ولم أجدك؟ـ قال الراوي ـ كأنها تعني الموت، قال ﷺ: ((**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**))[4]

وكذا أمرهُ عليه الصلاة والسلام لأبي بكر أن يصلي بالنَّاس في حالة مرضه عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ((**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**))[5] وكذا قوله عليه الصلاة والسلام: ((**يَأْبَى اللهُ تَعَالَى وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاَّ أَبَا بَكْرٍ**))[1] فهذه الأخبار وغيرها مما استشهد به العلماء على صحة خلافته ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذا خليلا برقم ٣٦٦٢، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ برقم ٢٣٨٤.

(٢) جزء من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي سبق تخريجه.

(٣) انظر/ فتح الباري للحافظ ابن حجر عند شرحه للحديث المذكور في رقم ٤٦٦، ٣٦٥٤ (٥٥٩/١، ١٤/٧).

(٤) متفق عليه من حديث مطعم بن جبير ﷺ أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذا خليلا برقم ٣٦٥٩، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضل أبي بكر الصديق ﷺ برقم ٢٣٨٦.

(٥) متفق عليه من حديث عائشة ﷺ أخرجه البخاري في عدة مواضع منها في كتاب الأذان، باب في حدّ المريض أن يشهد الجماعة برقم ٦٦٤، ومسلم في كتاب الصلاة، باب في استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض أو سفر وغيرهما .. برقم ٤١٨.

والصديق ﷺ هو أعلم الصحابة مطلقًا بمراد النبي عليه الصلاة والسلام ناهيك عن تصريح قوله: يشهد لهذا ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: خَطبَنَا النبي ﷺ في آخر حياته وعليه ملحفة صفراء فَقَالَ: ((إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ الله)) قَالَ أَبُو سَعِيد: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ ؟ ـ؛لأنَّ أبَا سعيد كان شابًّا في ذلك الوقت ـ يَبْكِي لقوله:((إِنْ يَكُنْ اللهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ الله)).

ثم قال أبو سعيد: بعدما تبين الأمر ((فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ الْعَبْدُ [الْمُخَيَّرُ]، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَعْلَمَنَا به)) [٢].

وبعد أن وقفنا على حدِّ الصحابي: وأنَّه من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به، ومات على ذلك، وتعرفنا على أدلة ثناء الله على الصحابة رضي الله عنهم في الجملة، وبعض التفصيل، وعلمنا أنَّ الصديق أفضل الأمة قاطبة، ثم عمر بن الخطاب. [٣] حان الأوان للشروع في ذكر مواقفهم واستقاء الدروس منها ومعرفة منهجهم مع النصوص ، ومع النوازل وذلك فيما يأتي:

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة ﷺ أخرجه البخاري في كتاب المرضى، باب ما رخص للمريض أن يقول إني وجع برقم ٥٦٦٦، وفي كتاب الأحكام، باب في الاستخلاف برقم٧٢١٧، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ برقم ٢٣٨٧.

(٢) متفق عليه وقد سبق تخريجه واللفظ المذكور لفظ البخاري في كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد برقم ٤٦٦، وكرره برقم ٣٦٥٤، ٣٩٠٤

(٣) هو: أمير المؤمنين أبو حفص: عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي يلتقي نسبه بنسب النبي ﷺ في كعب بن لؤي، ولقبه النبي ﷺ بالفاروق فقد فرق الله باسلامه بين الحق والباطل، وقوَّى به المسلمين، ولد بعد مولد النبي ﷺ بثلاث عشرة سنة، ونشأ كما ينشأ فتيان أشراف قريش في مكة مولعًا بالفروسية وأخبار العرب ومفاخرهم، وكان شهمًا جريئًا راجح العقل، سديد الرأي، ملهمًا كان كثيرًا ما أشارة إلى النبي ﷺ برأي فينزل القرآن موافقًا لما أشار به، وقد شهد كل المشاهد مع النبي ﷺ، وبعد وفاة النبي ﷺ كان خير عون لأبي بكر الصديق خليفة رسول الله في تصريف أمور الدولة ولما رأى فيه صفات جليلة تؤهله لتوَّلي أمور المسلمين من بعده استشار في أمره كبار الصحابة ﷺ فاتفقت آراؤهم على توليته فعهد إليه بالخلافة، وبايعه المسلمون خليفة لهم من بعده، وكان ذلك يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة من الهجرة،وقام بأمر الخلافة خير قيام، فاستمرت الفتوحات في عهده ففتح العرق وبلاد فارس، والشام ومصر وأجزاء من شمال إفريقيا، وشرع في بناء المدن في الأقطار المفتوحة، وقام بتقسيمها إلى ولايات، وأنشأ الدواوين كديوان الخراج والجند وغيرها من التنظيمات الإدارية، ووضع تاريخ التقويم الهجري، وقد كان عادلًا،شديدًا مع الولاة رفيقًا بالعامة واالضعفاء، ورغم عدله وحسن سيرته نالته يد القدر وهو في الصلاة فقد طعنه أبولؤلؤة فيروز المجوسي فمات شهيدًا رحمه الله في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة، انظر السيرة النبوية لابن هشام

وقفات منهجية تربوية دعوية

أعظم القضايا التي فيها دروس وعبر في حياة الصديق ﷺ هي قضية موت النبي ﷺ وما تبع خبر الوفاة في ذلك الوقت، وقد وصفت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها المجتمع المسلم بعد موت النبي ﷺ، فيما رواه عنها عروة بن الزبير ب فقالت: ((بقي المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة المظلمة الشاتية بالأرض المسبعة ليس معها راع)). [1] هذا تشبيه بليغ؛إذْ انهم قد فقدوا قائدهم ومعلمهم وموجههم ﷺ، فلا شك أنَّ الصدمة عنيفة والمصيبة شديدة.

وسأذكر بعض أحداث الوفاة النبوية، ثم نقف وقفات تربوية منهجية دعوية، لَمَّا حدثت هذه الفاجعة الكبرى، انقسم الصحابة ن إلى أقسام ثلاثة:

قسم مصدق بالخبر: وهم من كان عند النَّبِيِّ ﷺ عندما فاضت روحه الطاهرة.

وقسم: شاكٌ مترددٌ، وهم سواد الصحابة ن، وقسم ثالث: مُكَذِّبٌ الخبر برمته وعلى رأس هؤلاء أمير المؤمنين الفاروق عمر ﷺ.

والسؤال: الذي يطرح نفسه فِي هذا المقام ما ذا كان موقف الصديق ﷺ ؟.

تذكر الروايات: أنَّ الصديق ﷺ عندما كان، ما كان من خبر الوفاة كان بالسُّنْح وهو موضع من عوالي المدينةآ فلما ترامت الأنباء إلى مسامعه ﷺ جاء إلى المدينة ووصل المسجد، ولم يكلم أحدًا، ودخل إلى بيت ابنته عائشة ك ودلف إلى حجرتها ثم رأى النبي ﷺ مسجى وعليه بردة حبرة، فكشفها عن وجهه الشريف، ثم قبله وقال: ((**طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا**)). [2]

(٢٣٨/٣) والطبقات الكبرى لابن سعد (٢٦٥/٣) وتاريخ الطبري (٥٦٢/٢) والاستيعاب لابن عبد البر ١١٤٤/٠٣) ترجمة رقم١٨٧٧. وسير أعلام النبلاء للذهبي مجلد ١ [٤٥٥/٢ ـ ٥١٢] والإصابة لابن حجر(٥٨٨/٤) ٥٧٤٠.

(١) انظر/ تاريخ دمشق [٣١٤/٣٠]..

(٢) أخرجه البخاري من حديث عائشة ﵄ في عدة مواضع من صحيحه منها في كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه برقم ١٢٤١، وبرقم ١٢٤٢ من حديث ابن عباس ﵄ ، كما أخرجه عنها وعنه في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذا خليلا برقم ٣٦٦٧،

إذن تبيَّن للصديق أن خبر وفاة النبوة كالشمس في نحر الظهيرة، ليس دونها سحاب، والآن سيبيني الصديق ﷺ على ذلك حِكَمًا وأحكَامًا، وعمر ﷺ مازال يُكلِّم النَّاس مهددًا متوعدًا بقتل من يقول: بموت النبي ﷺ:، ولنتناول بعض دروس هذا الحدث الكبير، وموقف الصديق ﷺ، وقفة،وقفة .

الوقفة الأولى: التثبت من الأخبار قبل إصدار الأحكام.

حين بلغ الصديق ﷺ خبر الوفاة لم يكلم أحدًا وجاء من أعالي المدينة؛ لأنه كان هناك وقت الوفاة النبوية، ودخل بيت عائشة ك والنَّاس يموجون، وعمر ﷺ يخطب النَّاس ولم يتدخل في القضية حتى وقف على علم اليقين، وعين اليقين حق اليقين، كُلُّ هذه الأمور تحققت له، والرفق لم يفارقه في معالجة الموقف، وهو من أنفع الوسائل للإنسان.

ولهذا لاحِظْ بنفسك ما يحصل من بعض النَّاس من العجلة فِي الأمور، والبت فيها دون روية أو تثبت أو تأكد وهذه العجلة مذمومة؛ لأنَّ مثل هذه الأمور العظام ينبغي التأني فيها قبل الجزم بها: خاصةً فِي أوقات الفتن والنوازل الفاجعة، ويكون كما قالوا: يكسر القلم، ويكف اللسان، ويكون الإنسان على تثبت وعلى تؤدة.

قال ﷺ: ((**إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، ولاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ**)) [1] وقال عليه الصلاة والسلام: ((**إِذَا أَرَادَ الله بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ الرِّفْقَ**)) [2]

وقال ﷺ: ((**التؤدة ــ أي: الرفق والتَّأَنِّي ــ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلاَّ فِي أَمْرِ الآخِرَةِ**)) صح موقوفًا عن عمرﷺ، لكنه قبل ذلك ثبت مرفوعًا إلى النبي ﷺ [3]. ومثله ما ذكره ابن القيِّم في إعلام الموقعين، [4] من قوله ﷺ: ((**التَّأَنِي مِنَ الله، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ**)). [1]

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عائشة ﵁ في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق برقم ٢٥٩٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسند عائشة ﵁ (٧١/٦) والجعد في مسنده برقم ٣٤٥٣، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٦٥٦٠، و قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (١٩/٨).

(٣) أمَّا الموقوف عن عمر ﷺ فقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم ٣٥٦١٩، (٢٣٤/٧) والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٠٦٠٤.، وأمَّا المرفوع فقد روي عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الرفق برقم ٤٨١٠، وأبو يعلى في مسنده في مسند سعد بن أبي وقاص ﷺ برقم ٧٩٢، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرك في كتاب الإيمان، برقم ٢١٣ (٦٤/١) وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٧٩٤.

(٤) انظر/ إعلام الموقعين عن رب العالمين ص ٣٦٧، بتحقيق رائد بن صبري بن أبي علفة / طبعة دار طيبة بالرياض الطبعة الأولى عام ١٤٢٧هـ الموافق ٢٠٠٦م.

فعلى المرء عامةً والدَّاعية خاصةً أن يتثبت من أي خبر يأتيه، ولا يحدث بكـل مـا يـسمع، حتـى لا يكـون داخلًا تحت قول النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام: ((**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**)) [٢]

وقول عليه الصلاة والسلام: ((**بِئْسَ مَطِيَّةِ الرَّجُلِ زَعَمُوا**)).[٣] وهذا عقاب لمن لم يتثبت وقد أمـر الله جـلَّ وعـلا في كتابـه بالتثبـت، فقـال تعـالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[الحجرات:٦] وفي قراءة متواترة: (فَتَثَبَّتُوا).

ومنهج طالب العلم منهج الصحابة الذين لا يقبلون الإشاعات بمجرد سماعهم لها، ولا يلتفتون إليها حتى يتأكد الواحد منهم من صحتها، فيبني عليها حكمه وأحكامه.

لأنَّ الإشاعات لا تُصدَّق بمجرد سماعها، فكم من إشاعة رفعت باطلًا وخفـضت حقًـا، وكـم مـن إشاعة برأت متهمًا واتهمت بريئًا، وكم من إشاعة أماتت حيًّا وأحيت ميتًا؟، كم قـدح في عقائـد أُنـاس، وكم طعن في أعراض أُناس من حكام وعلماء، وطلبة علم، وجيران وأقارب بـسبب الإشـاعة، وكـم .. وكم .. وكم.. من إشاعة فعلت فعلتها فِي المجتمع.؟؟ ، ثم لَمَّا تَكَشَّفت الأمـور أصـبحت تلـك الأخبـار كسراب بقيعة!!

إذن أول موقف من الإشاعة: هو التثبت منها ومن الأخبار عامةً، والحذر من بناء الأحكام عليها قبل ثبوتها.

وأنت يا طالب العلم قدوة فينبغي إذا جاءتك إشاعة ألَّا تعمل بمجرد وصول الخـبر دون أن تتثبـت مـن الذي قال: ...؟ من الذي أثبته .. ؟ ومن الذي نفاه ..؟ هل هناك محملٌ حسنٌ ... ؟ أو مـا شـاكله...أو.. أو..

---

(١) رواه ابن أبي شيبة، وأبو يعلى، وابن منيع، والحارث بن أبي أسامة في مسانيدهم عن أنس ﷺ مرفوعًا، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم ٤٣٦٧، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح (١٩/٨)، ومثله قال المنذري في الترغيب (٢٨٤/٢)، وصححه علامة العصر في صحيح الترغيب برقم١٥٧٢.

(٢) رواه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما يسمع رقم ٥ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١١٩/٤، ٤٠١/٥) وأبو داود في كتاب الأدب، باب قول الرجل زعموا برقم ٤٩٧٢، قال الحافظ في الفتح رجاله ثقات (٥٥١/١٠) وذكره العلامة الألباني في الصحيحة برقم ٨٦٦.

شاهد المقال: أنه لَّما بلغ الصديق الخبر لم يُكلم أحدًا لماذا؟ ؛ لأنه كانت لديه قدرة، وهي التحقق من الأمر بالمشاهدة بعد ما جاءه أمر القصة عن طريق السماع وأنت تعلم أن الخبر لا يرقى إلى مستوى العيان، ولهذا قال الشاعر:

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما * قد حدثوك فما راءٍ كمن سمعا

والأخر يقول:

ولكن للعيان لطيف معنى * له سأل المعاينة الكليم

سأل موسى عليه السلام ربَّه تعالى أن ينظر إلى ذاته العليَّة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

فَنَبِيُّ الله موسى عليه الصلاة والسلام سمع كلام ربّه كلامًا حقيقيًا بحرف وصوت، فتاقت نفسه لرؤية ربِّه ؛لأنَّ المعاينة أو قع في النفس من مجرد سماع الصوت أو الخبر، كما جاء فِي الخبر عن النبي ﷺ ((**لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ**)) .[1]

لكن حجب الله تعالى الرؤية فِي الدنيا لحكمة بالغة يعلمها هو، ولعلها عدم تحمل موسى عليه السلام ذلك.

إنَّ قوم موسى عليه الصلاة والسلام فيما قصه علينا القرآن، عبدوا العجل وموسى حاملٌ ألواح التوراة بيده، ولم يلقها، فلما رآهم ألقاها؛لأنَّ من رأى ليس كمن سمع، قال تعالى: ﴿ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

إذن من أعظم الأمور المنهجية أن يتريث الشخص عند سماع الإشاعات، وأن يتقي الله تعالى من العجلة فِي تصديقها، و بناء الأحكام عليها قبل ثبوتها.

لكن إن ثبتت بها الأخبار، وجاءت القرائن تقطع بوقوعها بوسائل معروفة فنعم أمَّا مجرد أن تتلقفها أذناه يبني عليها حُكمًا، فيأمر وينهى، ويغضب ويرضى، فهذا ليس من المنهج الدعوي السليم.

---

(١) رواه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما مطولًا فيه قصة الكليم موسى عليه السلام وورد مختصرًا على اللفظ المذكور الإمام أحمد في المسند (٢١٥/١ ، ٢٧١) وابن حبان في صحيحه برقم ٦٢١٣ والحاكم في المستدرك برقم٣٣٥٠

وانظر إلى فقه الصديق ﷺ كيف تأنى وتروى في قبول تلك الإشاعة مع أنَّ الصحابه ن كانوا حوله، وكان يستطيع أنْ يسألهم؛ ولكن لَمَّا كان قادرًا على أن يقف على الحقيقة بنفسه رأى أنَّ المصلحة لا تكون إلَّا بذلك، فبادر ليتأَكدَ بنفسه، فلمَّاأى الصديق ُ النبيَ ﷺ قد مات علم أن تلك الإشاعة أصبحت حقًا لا مرية فيه، تلك الساعة ما الذي فعله الصديق ﷺ؟، بيان ذلك في الوقفة الثانية فإليها.

الوقفة الثانية: الرضا بقضاء الله تعالى وقدره.

لَمَّا دخل الصديق ﷺ بيت ابنته عائشة ك ورأى الفاجعة قد وقعت، وأنَّ المُصيبة الكبرى قد حصلت رَضِيَ بقضاء الله وقدره.

فالرضا بقضاء الله تعالى وقدره، وأنَّ أفعال الله تعالى لا تكون إلاَّ بحكمة واجب كما أنَّ الرضا بذلك، والتسليم لحكم الله من أعظم أسباب تثبيت الله لقلب العبد على الإيمان والهدى، فانظر رباطة جأش الصديق ﷺ ومن ثم الصحابة ن، مع هول الفاجعة إلاَّ أنَّه ذكرهم بالتوحيد وأخبرهم أنَّالأمر حق ٌ ، لا مرية فيه، وأنَّ المُصَاب قد وقع ولا دافع له، ولهذا فإنَّ تذكير النَّاسِ وتعليقهم بالله عزَّ وجلَّ عند حصول المُصَائِبِ من أعظم الأمور نفعًا لتثبيت قلوبهم، ولهذا كان النبي ﷺ دائمًا يربط أصحابه بالتوحيد وقوة اليقين، وأنَّ الأمر لله جلَّ وعلاَّ، فهذا كما قال العلماء: هو مدلول الآيات فِي القرآن الكريم أنَّ التَّعلُق بالله تعالى في كل أمر يخفف المُصَاب على صاحبه، قال عليه الصلاة والسلام: ((**لِيَسْتَرْجِعْ أَحَدُكُمْ وَلَوْ فِي شِسْعِ نَعْلِهِ**))[1] النعل إذا انقطعت مصيبةٌ، لكن إِذَا عَلِّقَ الأمر بالله تعالى، وقال: ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ** ﴾ [البقرة:١٥٦]

تهون عليه المْصيبة، وهذا ما يخفى ويغيب عن كثيرٍ من دعاة الإصلاح، تقع النازلة، فيهملون الكلام عن تعليق النَّاس بربهم، وأنَّ الأمر كُلَّهُ لله، وأَنَّ هذا من قضاء الله وقدره، الذي يجب التسليم لأمره .

وقد تغيب هذه المَعَالم عند الفاجعة، فيحصل الغلط واللبس من الاعتراض على القضاء والقدر بالتسخط وإظهار الضجر؛ لكن لو أنَّ الداعية رسخ هذا الجانب فِي قلوب النَّاسِ من قبل لهان الأمر

(١) أخرجه هناد في الزهد برقم ٤٢٤ (٢٤٦/١) والبزار في مسنده برقم ٣٤٧٥ (/) كلاهما عن أبي هريرة ﷺ

عليهم، ولتذكروا قول الله جلَّ وعلاَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦].

فموت النبي ﷺ من أعظم الفواجع التي قد وقعت؛ بل إنَّها المُصيبة الكبرى، وقد قال ﷺ مبينًا عظيم فاجعة موته ﷺ فيما أخرجه ابن ماجه وغيره: ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ، فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي**))[1]، فإنَّها أعظم المصائب كما قال ﷺ.

وبعض النَّاس من هول الفاجعة قد يُعارض القدر بقوله، أو فعله، كما هو شأن الجاهليين، فمن الفعل:شقّ الثياب، ونتف الشعور، ومن القول: التسخط باللفظ اعتراضًا على قضاء الله تعالى، وعدم الرضا به، وانظر إلى ثبات أبي بكر ﷺ مع عظم الفاجعة كيف كان ـ بتوفيق الله ـ ثابت الجنان متماسك البنيان.

خرج أبو بكر ﷺ من بيت النبي ﷺ إلى المسجد، وعمر ﷺ يخطب النَّاس ويهدد بقتل من يقول: أنَّ النبي ﷺ قد مات، ويقول: إنَّ نَبِيَّ الله ﷺ قد ذهب إلى ربِّه، كما ذهب موسى عليه السلام إلى ربِّه، وليرجعن فليضربن أعناق قوم منافقين.

دخل الصديق ﷺ إلى المسجد فقال: اجلس يا عمر ﷺ السؤال: لماذا بدأ الصديق الخطاب بعمر ب قبل أن يخاطب النَّاس؟ هذا ما سنعرفه في الوقفة التالية:

الوقفة الثالثة: المبادرة إلى تبليغ العلم، والسعي في إزالة اللبس.

إنَّ الرَّجُلَ المُؤثر فِي النَّاس إذا كان على خطأ في رأيه أو في أمر من أمور دعوته فإنَّه من واجب الديانة أنْ يُسارع الناصح إلى نصحه، وأنْ يبدأ به قبل غيره ؛لأنَّ أثره يتعدى و قوله يؤثر، فإذا تُرك مع خطأ قوله، فلاشك أنَّ دائرة الخطأ تتسع، فيعظم اللبس ويزيد اللغط والغلط.

فلهذا قال أبو بكرﷺ: اجلس يا عمرﷺ، وانظر إلى صيغة الخطاب، فعل أمر: اجلس، ونداء: يا عمر؛لأنَّ الوضع لا يتحمل أنْ يتكلَّمَ عمر ﷺ، فأصرَّ عمر على رأيه ولم يرجع عن قوله، فهل يتركه

---

(١) أخرجه من حديث عائشة ﷺ في كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة برقم ١٥٩٩، وصححه الألباني في السلسة الصحيحه برقم ١١٠٦.

الصديق ﷺ وما يقول: وهو فِي ذُهُول من هول الفاجعة التي حلَّتْ بالأمة،أو يبيِّن له خطأ قوله، فَلَمَّا رأى إصرار عمر ﷺ فِي موقفه أعرض عنه الصديق ﷺ، وخاطب النَّاس ؛لأنَّ المبادرة إلى تبليغ العلم والسعي فِي إزالة اللبس أمر مهم، بل واجب.

فالصديق ﷺ لَمَّا تَثَبَّتَ من خبر الوفاة ما تأخر عن بيانه؛لأنَّ التأخر في ذلك مما يزيد اللبس في الموقف وتتسع دائرة الخلاف، وهنا لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة ؛لأَنَّهُ صاحب علم، والعلم الذي معه قد تحقق من صحته، وهو يقطع كثيرًا من اللبس ويزيل الخلل، لذا تركه وبَلَّغَ النَّاس حقيقة الأمر الحاصل.

الوقفة الرابعة: المبادرة إلى تخطئة المخالف للدليل محبةً له.

إنَّ المبادرة إلى تخطئة المخالف، ولو كان أقرب النَّاس، محبةً له ونصحًا له ودفعًا له عن خطئه، وأنَّ من الجهالة بمكان أنْ يَظُنَّ الإنسان أنَّ تخطئة من يُحِبُ من عدم كمال الأخوة، وهذا دليل على قِلَّةِ الفقه، وعلى عدم معرفة حق الأخوة!.

وأعظم منه أنْ يصحح خطأه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ في كلام له: ((ومن النَّاس من إذا أحبَّ شخصًا تغاضى عن جميع سيئاته، ومنهم من إذا أبغض شخصًا تغاضى عن جميع حسناته، وهذا من أعمال أهل البدع من الخوارج والجهمية والمعتزلة))

إذن انظر كيف بادر الصديق ﷺ فخطأ عمر ﷺ، ولم يتردد في ذلك؛ لأنَّ كلامه مخالف للحقيقة؛ لكن انظر إلى الأسلوب فقد بدأ الصديق ﷺ بفقهه، فخاطب عمر ﷺ بنفسه، فلـمَّا رأى إصراره تركه، وأقبل على النَّاس فكان ما كان من الخبر.

وهنا فرق فِي التخطئة: هناك التماس العذر في حسن المقصد هذا ينبغي أنْ يكون منهج كل مسلم فِي حياته وتعامله مع الناس.

والتصريح بخطأ المخالف، هذا ليس من باب الطعن؛ بل من باب المحبة له، نعم لا تشفع حسن النية لصحة العمل، قد تكون نية الرجل طيبة، وأبيض من ماء السحاب، كما يُقال: ولكن صلاح النية لا تشفع للشخص أنْ يكون عمله صحيحًا على صواب وبصيرة، حتى يوافق الدليل.

فيقال: لمن في مثل هذه الحال: أمَّا الإثم فيما يظهر، فمرفوع إن شاء الله تعالى، لحسن النية وطيب الطوية، وأَمَّا القول أو الفعل، فخطأ ينبغي الإقلاع والكف عنه.

والسؤال: الذي يطرح نفسه هنا؟ هل تحكم الصديق ﷺ عاطفته فيجاري عمر ﷺ بحكم القرابة اللصيقة الوثيقة بينهما محبة في الله، وصحبة ونصرة ؟ أو هل يُغلِّب الحقَّ على العاطفة، ويقرر ما ثبت عنده من خطأ من يحب ؟.

فعندما أصرَّ عمر ﷺ على عدم الجلوس، وعلى موقفه تركه الصديق ﷺ، ثم أقبل على النَّاس ..

إذن إذا خالفك من تُحب وعَلمتَ أنَّه على خطأ في قوله أو في منهج دعوته، فما العمل وما الشأن .. ؟ أتحكمك عاطفة المحبة، فتكون تبعًا لها ؟ أوؤثُر الحقَّ وتصدع به، فتخالف من تحب ؟ لم يكن الصحابة ن تحكمهم عاطفة المحبة، فيسكتوا على الخطأ الذي يُؤَثر..؟ فالُمحاباة والُمجاملة والسكوت على الخطأ لم يكن من منهج الصحابة، إذًا ما هو منهج الصحابة ؟.

لقد طالعنا في التاريخ: ((أَنَّ الصديق ﷺ بادر إلى تخطئة عمر ﷺ ولم يتردد فِي ذلك؛ لأنَّ كلام عمر ﷺ كان مخالفًا للحقيقة؛ لكن الصديق بدأ بفقه، فخاطب عمر بنفسه ولَمَّا رآه مُصِرًّا على مبدئه ومنهجه، وقوله: أعرض عنه وتركه، ثم خاطب النَّاس بالحقِّ مخالفًا لِمَا قال عمرﷺ ؛لأنَّ المسألة لا تحتاج إلى تأخير، فالأمر جلل والخطب عظيم.

فالتفت إلى النَّاس وبدأ بدعوة التوحيد فقرر التوحيد فِي نفوسهم ؛لأنَّ التوحيد، كما قال أهل العلم هو النور الدافع للشبهات وللشهوات، وبقوة توحيد العبد يقوى دفعه لشهوات نفسه وشبهاتها، فقال كلمة تشرف التاريخ بحفظها، وسجلها بين طيات صفحاته، قال: ((**أَيُّهَا النَّاس مَن كَانَ يَعبدُ اللهَ، فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لا يَموتُ، وَمَن كَانَ يَعبدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ**)) [1].

فغرس التوحيد فِي قلوب النَّاس أولاً: وقرَّرهم به، وذكرهم به في تلك الساعة لتستيقظ فطرهم وتتفطن نفوسهم، وأنت يا عبد الله تعلم ــ رعاك الله ــ أنَّ عِظم المصيبة يذهل النفس عن النَّص، ولهذا قال بعض أهل العلم: ((**عند النوازل تذهل النفوس عن النصوص**)).

(١) جزء من حديث عائشة ﷺ وقد سبق تخريجه.

ولابدَّ من قائد يقود الأمة إلى بر الأمان، وكان الصديق ﷺأحق ً بها وأهلها،حيث ذكر هذه الكلمة التي تدل على عميق إيمانه وثاقب علمه، ثُمَّ ثنى بالدليل الشرعيُ وهو قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ** ﴾ [آل عمران:١٤٤]

كما قال أحد أهل العلم: ((إِنَّ المفتي إذا كان يفتي بالدليل الشرعي يكون على فتـواه نـور يـصل بـه إلى أعماق قلوب المخاطبين)).

فعند النوازل العظيمة ينبغي أن يتقي العبد ربَّه وألَّا يـتكلم إلَّا بعلـم، فقـد نطـق الـصِّدِّيق بالـدليل الشرعي، والفتن والنوازل لا يحسمها إلاَّ الدليل الشرعي.

أمَّا التخرصات والاستحسانات والتوقعات العقلية المجردة من النظرة الشرعية، فهذه كسراب بقيعة، كم قيل من أقوال: ثم تبخرت ؟ كم جُزم وقُطع بحـصول أشـياء وأنَّـه سـيكون فكـذَّبت الأيـام تلـك الأخبار، لكن إذا رأيت أقوال العلماء الراسخين تجد أنَّ تلك الأقوال راسية كرسو الجبال الضخمة.

انظر ــ رعاك الله ــ كيف أنَّ الصديق ﷺ تَكلَّم وتـرك عمـرﷺ وأعـرض عنـه وخـالف قولـه: لأنَّ المصلحة أعظم من أنْ يسكت عمر ﷺ.

لكن لا لوم على الصَّحَابَة الكرام ن ؛لأنَّ المصيبة عظمية، عظيمة، ولهذا قال عروة بن الزبير يصف حال المجتمع بعد النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه عن عائشة رضي الله عنها: ((أصبح المسلمون يوم موت نبيهم كالغنم الشاتية في الليلة المطيرة، المظلمة في الأرض المسبعة ليس معها راع)) [1]. تخيل هذا الموضع.

شاهد القول أنَّ الصديق ﷺ طوى هذه الصفحة بفضل الله تعالى أولاً، ثم بعلمه ثانيًا، وبثباته ثالثًا.

وقد قالت عائشة ك: فَلَمَّا سمع النَّاس الصديق يتلو الآية انصرفوا في الطرقات يتلونها كأنَّها لتوها نزلت،[2] وكما سبق، وأنْ علمت قول بعض العلماء: ((عند النوازل تذهل النفوس عن النَّصوص)).

(١) سبق تخريجه.

(٢) جزء من حديث سبق تخريجه.

فإذا ذكَّرتَ النَّاسَ في وقت النازلة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية المنطبقة على الواقعة قَبِلَ النَّاسُ ذلك: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

إذًا انصرف النَّاس وعلموا أنَّ الأمر قد حصل، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد مات؛ ولكن يا تُرَى أمر آخر: ماذا حدث لعمر رضي الله عنه بعد ذلك؟، هذا ما سنتحدث عنه فِي الوقفة التالية:

الوقفة الخامسة: رجوع المخالف عند سماع الحق.

سرعة رجوع المخالف عند بلوغ الدليل الشرعي له، وهذا لا يوفق له إلَّا صاحب القلب السليم؛ لأنَّ الإنسان قد يسمع الدليل، ولكن لعناده قد يصعُب عليه الرجوع وهو بفعله هذا يحفر قبره بنفسه، والعاقل يفرح إذا سمع الدليل.

قال عمر رضي الله عنه وهو الصادق البارُّ: ((فَلَمَّا سَمِعْتُ الصِّدِّيقَ يَتْلُوهَا عَقَرَتْنِي قَدَمَايَ فَجَلَسْتُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ))[1] ماذا نستفيد من هذه القصة .. ؟ نستفيد أنَّ فِي أوقات الفتن والنوازل ينبغي على الإنسان، بل يجب عليه أن يفتح صدره، و قلبه قبل أذنه لسماع الدليل بقصد الحقِّ ، فإذا علم الله تعالى أنَّك تقصد الوصول إلى الحقِّ ، حَبَّبَ الله الحقَّ إليك، ووفقك إليه.

كذلك نستفيد أنَّ الإنسان إذا خالفه غيره، فإنَّه يجب أن يتقي الله تعالى فِي قول المخالف، وأن يرى وينظر بعين البصيرة قبل البصر، وأنْ ينظر في الدليل وفي قول المخالف له،قبل القول فيه، والحكم عليه.

فإنْ كان المخالف له قد جاء بالدليل الموافق للنازلة، فإنَّ من الديانة أنْ يرجع عن قوله، وأن يعترف بخطئه، وانظر إلى ديانة عمر رضي الله عنه وإلى قوة ورعه وقوة يقينه واستسلامه للحقِّ ، فمنذُ أنْ سمع الصديق يتلو الآية تراجع من فوره، واعترف بخطئه وَعدَّ ذلك من التقرب إلى الله عزَّ وجلَّ، وأذعن بأنَّ الصديق رضي الله عنه قد أصاب في قوله، وأنَّهُ أخطا في رأيه ب.

وهذه منقبة في حقِّ الفاروق رضي الله عنه وهو أهلٌ لها فقد رجع إلى الحقِّ منذ أن سمعه ولم يتلكأ، ولم يقل يعزُّ عليَّ أن أتراجع هذه الساعة أمام النَّاس، يعزُّ عليَّ أن أعترف بخطئي سَأُصِرُّ على رأيي، وألْتمس لنفسي

(١) جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقد سبق تخريجه.

أعذارًا، بل رجع ﷺ أمام النَّاس وعلى مشهد منهم في اللحظة نفسها، وهذا من كمال إيمانه ومن قوة صدقه ويقينه ﷺ.

وبعض النَّاس إذا أخطأ يَعزُّ عليه أنْ يرجع، ويقول: أعترف بخطئي فيلمزني فلان وفلان؛ بل ألـتمس العذر لنفسي، وهذا والله من تلبيس الشيطان، والصواب أنْ تقول لمن أخطأتَ في حقِّه: أخطأتُ، وتعـود إلى الرشد والصواب، وهذا كان ديدن أمير المؤمنين عمر الفاروق ﷺ في نفسه، كما كـان يـوصي بـه عمالـه وولاته.

فقد كتب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ في كتابه المشهور في القضاء، ((ولا يمنعنَّك قـضاءٌ قـضيت بـه اليوم فراجعت فيه رأيك، وهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحـق ، فـإنَّ الحـق قـديم، ولا يبطلـه شيء، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل))[1]

انصرف النَّاس ووضح الحق لعمر ﷺ من استدلال الصديق الذي جمع بين صحة الدليل آيـة محكمـة، وبين إيرادها في موضعها، وهو إخبار النَّاس بأنَّ النبي ﷺ قد مات.

ثم كيف كان عمر ﷺ في أوج خلافته وبين وزرائه وكبار أصحابه في وقت قـد تـستنكف الـنفس أن تُنتقد، أو أن ترضى بالغلبة عليها، ولكن إذا كانت التقوى حاكمة، والنفس محكومة رأيت العجب.

ففي صحيح البخاري ـ/ـ كَانَ مَجْلِسُ عُمَر ﷺ فِيهِ الْكُهُولُ وَالشُّبَّانُ، وَكَانَ مِنْ ضِمْنِهِم الْحُرُّ بْنِ قَيْسٍ الفزاري، فَجَاءَ عُيَيْنَةُ بْنُ حصن بن حذيفة، وقال: يا ابن أخي: يخاطب الْحُرَّ بْنَ قَيْسَ هَلْ لَكَ وَجْـهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ؟ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ؟ ـــ يعني: هل لك وجه عند عمر، فتستأذن لي عليه؟ قال: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ.

قال ابن عباس ب وهو راوي القصة، فاستأذن الحر بن قيس لعمه عيينة فدخل على عمر ﷺ فقال: ((**يَا ابْنَ الْخَطَّابِ**)): ـ لاحظ الخطاب المجرد من مقام تعظيم لمثل عمر أمير المؤمنين ـ ((**وَالله مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَمَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ**)) قال الراوي ابن عباس ب فغضب عمر ﷺ فقام وهمَّ أن يقع به، فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين إنَّ الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ**

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيِّم ص ٨٠ تحقيق رائد بن صبري بن أبي علفة/ طبعة دار طيبة بالرياض الطبعة الأولى عام١٤٢٧هـ.

ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]. وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، قَالَ الرَّاوِي: ((**فَوَ اللهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ ﷺ حِينَ تَلاَهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ**))[1]

ويزيد العجب إذا علمنا أنَّ عمر ﷺ كان الرجل الأول فِي الدنيا كلها ساعتها، وأنَّهُ قد تعرِّض فيه للكذب عليه في مجلس خلافته، وأهين.

والإهانة إذا كانت أمام النَّاس أثقل على النفوس من الجبال.

وانظر لَمَّا سمع الدليل وهو القدوة فِي فعله وقوله كيف سارع ﷺ إلى الكف عمَّا أراد أن يفعل، فأين هذا من أناس يضيق أحدهم ذرعًا إذا انتقد؟ وقد يكون على خطأ، ويكون الناقد مصيبًا في نقده.

أيضًا من هذه الأمثلة الذهبية التي نحتاجها في حياتنا وفي دعوتنا للنَّاس ما صح أنَّ عمر ﷺ حلف بغير الله، فأُخبر أنَّ النبي ﷺ: ((**نَهَى عَنْ أَنْ يَحْلِفَ الرَّجُل بِغَيرِ اللهِ**)) قال عُمر ﷺ: ((**فَوَ اللهِ مَا قُلْتُهَا ذَاكِرًا وَلاَ آثِرًا**))[2]. أي: لم أقلها مرة أخرى، ولم أنقلها عن أحد أي: لم أنقل هذه الصيغة لشناعتها عن أحد أنَّه حلف بها.

وكذا فيما أخرجه مسلم في الصحيح أنَّ أبا موسى الأشعري ﷺ طرق الباب على عمر ﷺ وقال: السلام عليكم! هذا عبد الله بن قيس، فما أجابه أحد، ثم طرقه أخرى، فقال: السلام عليكم هذا أبو موسى، فما أجابه أحد، فانصرف أبو موسى ففرغ عمر من شغله، وقال: ردوه عليَّ، فذهبوا إليه، فجاء فقال عمر ﷺ: ما حملك على ما صنعت ــ يعني: كيف انصرفت ــ قال: يا عمر حديث سمعته من النبي ﷺ: ((**إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثًا، فَلَمْ يُؤْذَنُ لَهُ، فَلْيَرْجِعْ**))، قال: ((**وَاللهِ لَتَأْتِيَنِّي عَلَى هَذَا بِبَيِّنَةٍ وَإِلَّا؟ فَعَلْتُ وَفَعَلْتُ بِكَ**)).[3]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] برقم٤٦٤٢ ،وكرره في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة،باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ برقم ٧٢٨٦.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم برقم ٦٦٤٦.، ومسلم في كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى برقم ١٦٤٦

(٣) الحديث متفق عليه واللفظ المذكور لفظ مسلم أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: في كتاب البيوع، باب الخروج للتجارة برقم ٢٠٦٢، وفي كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان برقم ٦٢٤٥، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الحجة على من قال:... برقم ٧٣٥٣، ومسلم في كتاب الأدب، باب الاستئذان برقم ٢١٥٣.

تحُجَّ لعمر ﷺ أنْ يقول: هذا الكلام ؛لأنَّ أبَا موسى ﷺ عزا هذا إلى النبي ﷺ وهو يريد ثبوت الخبر، فذهب أبو موسى ﷺ إلى بعض مجمع الأنصار، فقال أُبَيٌّ ﷺ: قم: يا أبا سعيد ــ وفي بعض الروايات ــ أنَّ الذي ذهب معه أُبَيٌّ، فجمع العلماء بين الروايتين أنَّ أُبيًّا أمر أبا سعيد، فلما ذهب أبو سعيد تبعه أُبَيٌّ، أو أن أبا موسى أتى، ومعه أُبَيٌّ بن كعب ب، وقال أُبَيٌّ: يا أمير المؤمنين لا تكن غليظًا على أصحاب النبي ﷺ،ثم أخبره بالحديث، قال عمر ﷺ: ((**شغلني الصفق بالأسواق عن الحديث**)) لكن انظر: كيف سارع بالرجوع ولم يتردد طرفة عين، وهذا هو التَّمثُل لقول الله جلَّ وعلاَّ: ﴿ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء:٦٥] تسليمًا لاشك فيه ولا تردد فيه، ولا مرية فيه، بل المبادرة لذلك.

ومن الأمثلة على المبادرة في الرجوإلى الحق ِّ من أمير المؤمنين الفاروق عمر ﷺ قصة حاطب بن أَبي بلتعة ﷺ المشهورة في البخاري وغيره عندما بعث كتابًا للمشركين، وفي آخر القصة رجوع عمر ﷺ وامتثاله للدليل الشرعي، وعدم التَّقدُّم بين يدي الله تعالى، حينما قال عمر ﷺ: يا رسول الله دعني أضرب عنقه قال ﷺ: ((يَا عُمَرُ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)) فَدمعت عينا عمر ﷺ، فقال: الله ورسوله أعلم.[1]

كان قبل لحظات يَهمُّ أن يضرب عنق حاطب ب، لكن لما جاء الدليل وخطأه النبي ﷺ في حكمه أو في مراده، سارع عمر ﷺ إلى الرجوع مع أنَّ الأمر جلل،وهي إفشاء سرِّ القائد الأعلى، لكن لا خيرة ولا رأي للمؤمن عن حكم الله تعالى، وحكم رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات:١]

هذه المواقف هي قطرة من بحر، وغيض من فيض، وإلا فدواوين السنَّة ملأى بهذه الأمثلة، وليس المراد حصرها واستقصاءها، وإنَّما المراد منها العبرة والفائدة:

---

(١) متفق عليه من حديث علي بن أبي طالب ﷺ أخرجه البخاري في عدة مواضع في صحيحه منها: في كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس برقم ٣٠٠٧ ،وفي كتاب المغازي،باب فضل من شهد بدرًا برقم ٣٩٨٣، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة ﷺ برقم ٢٤٩٤.

وهو أن يتمثل ذاك المنهج كل أحد في أرض الواقع، فلا خير فيمن دعا إلى خير، وكان الدليل بخلافه، وأَصَرَّ على رأيه، ولا خير فيمن أقرَّ ذلك المخطئ على رأيه الخاطئ أي: لا خير في المنهج الذي هو بهذه الصورة فالحذر كُلَّ الحذر من ذلك.

وليفرح الإنسان بالدليل فِي مواطنه أشدَّ من فرحه بطعام على جوع أو بشراب على عطش ؛لأن في مجيء الدليل غذاء للقلوب، أمَّا في مجيء الطعام والشراب فغذاء الأبدان فقط، وهنا يستحسن أن تذكر عبارة لشيخ الإسلام ابن تيمية قال: ((والنَّاس بحاجة إلى الوحيين أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب،فإنَّ الطعام والشراب فيه حياة الأبدان، وإن الوحيين فيهما حياة القلوب، وذهاب الوحيين، أي: عدم العمل بهما ــ فيه موت للقلوب ــ وذهاب الطعام والشراب فيه موت للأبدان، ثم قال: فحياة القلوب

أعظم من حياة الأبدان ـ وموت القلوب أعظم من موت الأبدان)) [1].

هذه الأمثلة وأمثالها يحتاجها طالب العلم وبخاصة عند مواطن الخلاف.

الوقف السادسة: وهي موضع دفن النبي ﷺ.

كذلكوقع خلافٌ بين الصحابة ن في موضع دفن النبي ﷺ،فقال بعض المهاجرة: يدفن في مكة موطن آبائه وأجداده، وقال بعض الأنصار: يدفن في المدينة موضع إقامته ونصرة دينه ﷺ كما جاء ت به الروايات.

ولاشك أنَّ هذه قضية شائكة إذْ إِنَّ تأخر دفن الجثمان النبوي يترتب عليه أمور كثيرة فما الشأن وما العمل ؟ جاء الصديق ﷺ بالعلم الشرعي وليس بالعاطفة، وانظر إلى الفقه في الاستدلال واستحضار النُّصوص في مواضع النوازل يكون بعد فضل الله تعالى كاشفًا للغمةِ ومزيلاً للبس.

قال الصديق ﷺ: سمعته ﷺ يقول: ((**يُدْفَنُ النَّبِيُّ حَيْثُ قُبِضَ**)) [2] فأذعنوا لقوله فأزاحوا فراشه ﷺ، ثم حفروا له تحت فراشه الذي مات عليه،فدفن ﷺ.

---

(١) أورد المؤلف في كتابه معالم في طريق طلب العلم ص٥٣. قريبًا من هذا المعنى، وعزاه لشيخ الإسلام بلفظ: ((الرسالة ضرورية للعباد،لا بد منها، وحاجتهم إليها أشد من حاجتهم إلى كل شيء...))

(٢) أخرجه ابن ماجه: بلفظ: **((ما مات نبي إلاّ دفن حيث قبض))** في كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته و دفنه ﷺ برقم ١٦٢٨، أبو يعلى في مسنده في مسند أبي بكر ﷺ برقم٢٢، ٢٣، ٤٥، وانظر/ تاريخ الطبري (٢/٢٣٩).

فائدة استطرادية:

من باب العلم ذكر العلماء في مبحث النبوات أن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام خصائص دون النَّاس وعدوا منها: الوحي، و أنَّهُم يخيرون عند الموت، ويدفنون حيث ماتوا عليهم الصلاة والسلام ـــ وأنَّ الأرض لا تأكل أجسادهم، ومن خصائصهم أَنَّهُمْ أحياء في قبورهم ... إلى غير ذلك ـــ.

أمَّا نبينا عليه الصلاة والسلام فله مزيد خواص منها: أنَّهُ أكثر الأنبياء تبعًا، وأنَّه صاحب الشفاعة الكبرى، وأنَّ كتابه باقٍ إلى قيام الساعة إلى غير ذلك، مما هو معلوم لدى جميع المسلمين إن شاء الله تعالى.

شاهد القول: أنَّ الأدلة الشرعية إذا كان المستدل بها عارفًا لمنهج التلقي من حيث الدراية، ومن حيث الرواية، وهي: منهج الاستدلال فِي تلك الساعة يحصل الخير ويضح الحق ٌّ ، ويرتفع اللبس والباطل.

وإنَّ من الجريمة والشناعة أنْ يَخُوض الإنسان فِي النَّصوص الشرعية، وبخاصة عند النوازل الكبيرة، دون علم وبصيرة، والله المستعان.

الوقفة السابعة: التوقف عن حكم ما لم يعلموا حكمه.

إنَّ من منهج الصحابة ن ومواقفهم المشهورة أنَّهم وقَّافُون عن التصدر للفتوى وإصدار الأحكام عامة، وفيما لم يبلغهم فيه شيء من الوحي خاصة، وكان شعارهم ردَّ العلم إلى الله ورسوله، بقولهم: الله ورسوله أعلم، وفِي خبر وفاة النبي ﷺ ما تكلم أحد منهم؛ بل تركوا الأمر لكبارهم وعلمائهم، فما تكلَّم أحدٌ ولا خاض أحدٌ منهم؛ بل كانوا ينتظرون ماذا يقول: كبارهم وعلماؤهم ؟.

فالقول: قولهم، وهم أصحاب الإرشاد والفتيا، ولا يتعدون كلامهم ؟ وهم قد خرجوا عليهم بالنتيجة، وهي: أنَّ وفاة النبيحق ٌّ لا ريب فيه! ماذا حدث هل خالفوهم؟، بل تأدبوا معهم وأنصتوا لهم، لماذا ؟ ؛ لأنَّهم تعلَّمُوا توقير كبارهم وعلمائهم، فهم قدوتهم، وهم أهل الحلِّ والعقد، وهم أهل الشأن، فلماذا الكلام والتقدم قبلهم ؟.

ولهذا نجد من الجناية والعجلة المذمومة أنْ يتسلَّق الإنسان سورًا ما يستطيعه إلاَّ كبار أهل العلم، فيحلل ويحرم، ويكفر ويفسق، ويبدع ويَسُنُّ، ولو سألته من قدوتك في ذلك ؟ لكانت عاطفته الجياشة، وتسرعه غير المنضبط، ولاشك أنَّ هذا من ضعف الديانة، ومن ضعف الوازع الإيماني؛ لأنَّ صاحب الوازع الشرعي يحذر من أنْ يقول: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ .. وهذا كذا .. وهذا كذا ...

فالقول على الله بغير علم أعظم من الشرك ؟ قد يقول بعضكم عجبًا: أليس الشرك أعظم ذنب ؟ بلى.

ولكن الشرك متفرع من القول على الله بغير علم، فالحذر والتحذير من القول على الله بلا علم، قال تعالى: ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

الوقفة الثامنة: أدب الإيثار عند الكبار من أصحاب العلم والخبرة.

فظهر عدم التَّقدم من الصحابة ن بين يدي كبار علمائهم، فانظر عندما جاء الخبر بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام لم يتكلم أحد من الصحابة ن،غير عمر ﷺ لأنَّ له مقامه ويعرفون فضله وإيمانه وعلمه، فلم يتكلم أحد، ولكن لما جاء الصديق ﷺ وهو أرفع منه دينًا وعلمًا، وفضلاً تكلم.

فانظر كيف أمسك الصحابة ن ألسنتهم ولم يتكلموا؛ لأنَّ هناك من هو أعلى قدرًا فِي العلم وفي الديانة، ولا كلام مع كلامه، ولهذا كانوا ن من أدرى النَّاس بتحقيق هذه الآية، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٤٣].

ولا يخفى فِي شريف علمك إن شاء الله تعالى أنَّ دائرة العلم واسعة إلاَّ أنَّ أهل العلم يتفاوتون فِي التحصيل، وفي المرتبة الأولى كبار أهل العلم المشهود لهم بالتقدُّم في علوم الشريعة، فمعرفة الصحابة لقدرهم عند أهل القدر منهم هذه تكررت من الصحابة في مواقف كثيرة أن الصحابي يعرف قدره في الفضل، ويعرف قدره في العلم، فإذا حضر من هو أعلم منه، أو من هو أفضل بالأدلة الشرعية توقف، وفي هذا الزمن فيما يظهر للناس.

فالمراد: من هذا أنَّ الإنسان ينبغي أن يتأدب في الكلام إذا كان يتكلم مع من هو أعلم منه، فانظر: كيف كان عمرﷺ مع هيبته ومع سابقته فِي الإسلام كيف تأدب مع أبي بكرﷺ ولم يرفع يدًا عن طاعة الصديق في طاعة الله تعالى، وأمسك لسانه ؛لأنَّ من هو أعلم منه كان يريد الكلام قبله، فقدَّمه وآثره ولم

يستأثر وبذلك تكون العواطف مبنية على دليل شرعي، وأن أي: عاطفة تزم بزمام العلم الشرعي، فإنَّ صاحبها متى ما تبيَّن له أن الحق خلاف ما هو عليه نسف تلك العاطفة، ورجع إلى عين الحق .

ولهذا ما أجمل ما قيل: ((العواطف إن لم تكن مبنية على دليل، فإنَّها تنقلب عواصف)).

وكم من عواطف جياشة متدفقة وغيرة مندفعة لم تزم بزمام العلم الشرعي لاشك ولا ريب أن أصحابها كانوا على خير، وأنَّهم يريدون الخير، وأنَّ مقاصدهم طيبة، وأنَّ نياتهم سليمة؛ لكن كل هذا لا يشفع لصلاح العمل، العواطف بلا علم تنقلب عواصف أيضًا، كل هذه الأمور التثبت، والتروي، والمبادرة في بيان الحق من أسباب ثبات القلب وشجاعته، يقول بعض العلماء القرطبي أو غيره: ((كان الصديق أقوى الصحابة قلبًا في مواطن الفتن، ولاشك أن قوة الإيمان، وخصاله في سبقه وعلمه وقربه من النبي ﷺ له هذا التميز بين الصحابة ن، لكن في الأخذ بالأسباب الشرعية، والأخذ بالأدلة الشرعية من أسباب ثبات القلب وبخاصة في مواطن الفتن)) .

بعد هذا يأتي خبر آخر عالجه الصديق ﷺ بحزم وعلم، وكان لهذا الموقف أثره العظيم في تغيير مجرى التاريخ، ومن الأحداث العظيمة التي مرت في خلافة الصديق ﷺ خبر سقيفة بن ساعدة، موضوع حديث الوقفة الآتية:

الوقفة التاسعة: حرص الصحابة ن على وحدة الصف وجمع الكلمة.

فلننظر ولنسمع ما الذي حدث في السقيفة وكيف عالج الصديق ﷺ تلك الواقعة بعلم وبصيرة ؟ وقد ورد الخبر مطولاً أخرجه البخاري في الصحيح[1].

وخلاصته: أنَّ الصحابة ن لـمَّا تحققوا من موت النبي ﷺ اجتمع بعض الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فعلم بخبرهم بعض المهاجرين رضي الله تعالى عن الجميع، وعلموا أن الأنصار اجتمعوا في السقيفة؛ لأجل الكلام في شأن الخلافة، ومن يخلف الأمة بعد نبيها ﷺ فذهب أبو بكر وعمر ب ومعهم بعض المهاجرين إلى السقيفة حتى يرفعوا هذا الخلاف، و يجمعوا الكلمة، والتأخير في هذا الأمر أو المخالفة فيه يزيده شقة وتناحرًا وشماتة الأعداء، الذين اشرأبت أعناقهم من المنافقين والمرتدين،لنيل من الإسلام

(١) في كتاب الحدود، باب رجم الحبلى إذا أحصنت برقم ٦٨٣٠.

والمسلمين؛ لكن انظر كيف كـان حـرص الـصحابة ن عـلى جمـع الكلمـة ورأب الـصدع بـصورة مـثلى، فاستعادوا هيبتهم ورجعوا من الخلاف وحموا بيضة الإسلام، وقادوا سفينة الإسلام.

إذًا ذهبوا ن إلى السقيفة التي سيصدر من تحت سقفها أعظم قرار تاريخي بعد وفاة النبي ﷺ وهو مـن يتولى أمر أمة الإسلام، ويكون خليفة رسول الله ﷺ.

قال عمر ﷺ: فلما دخلنا السقيفة قام خطيب الأنصار، فخطب فذكر بعض ما للأنصار مـن المناقـب والمآثر.

وكنت قد زورت في نفسي مقالاً ــ التزوير في لسان العرب [1] التهيئة، يعني: هيئت وأعددت وجهزت مقالة، يقول: أريد أن أطرحها بين يدي أبي بكر ﷺ.

فلما فرغ الخطيب أردت أن أقوم، فلحظني الصديق ﷺ بعينه، وكنت أداري منه بعـض الحـدِّ، فجلـست هيبة له، انظر إلى هذا الأدب المتأصل عند الصحابة ن، أن مواطن الفتن لهـا الكبـار، وكلـما حـضر الكبـير سكت من دونه، ولا يتكلم في مواطن الفتن والنوازل إلاَّ كبار أهل العلم، وكل زمان بحسبه.

شاهد القول: قال عمر ﷺ: فقام الصديق فو الله ما ترك كلمة كنت قد زورتها إلا قال: مثلها أو أحسن منها في بديهيته، ثم قال: يا معشر الأنصار...

ما الذي نستفيده من هذا التعبير، ومن هذا الأسلوب؟ نستفيد منه إذا كان الطرف الآخر المخالف لك معروفًا بصدق الديانة وسلامة الصدر، فخالفك فله مكانته وله فـضله، ومـن الظلـم والجهـل أن تنـسى فضله ومكانته بمجرد أن خالفك في أمر أو مسألة.

بل الواجب الشرعي والوازع الفطري والعقلي يحثك على أن تبادر ببيان الحقّ له لأن المظنون به أنه مـن أسرع الناس أوبة إلى الحقّ، ورجوعًا إليه.

فقام الصديق ﷺ فأقر خطيب الأنصار على ما ذكر من مناقبهم ومآثرهم ثم ثنى بذكر ما لم يذكره، مما لهم من السبق والفضل والتزكية الإلهية والنبويةهذا حقٌ لهم ولا ينازع فيه أحد، وكـأنَّ الـصديق ﷺ استحضر فيما يبدو، فعل النبي ﷺ في يوم حنين في قسمة الغنائم، فقد أعطى ﷺ قريشًا، وترك الأنـصار ن،

(١) انظر/ فتح الباري للحافظ ابن حجر (٣٠/٧).

ولم يعطهم شيئًا، فكأن بعض الأنصار وجد في نفسه شيئًا، كما يقع في نفس كل أحد، فقال كلامًا: مفـاده لِمَ لَمْ يكن لنا حظ من الغنيمة؟ فبلغ الخبر النبي ﷺ فجمعهم وقال: ((**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ**)) .[1]

وهذا من الأدب النبوي على صاحبه أتم الصلاة، وأزكى التسليم ((**مَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ**)) مع أنَّـه بلغه الخبر لكن من باب إظهار منزلتهم، فلم يتكلم أحد منهم، فذكر لهم بعض ما منَّ الله به عليهم بـسببه من الهداية، والغنى، وتأليف القلوب، ثم قال: لو شئتم لقلتم: كذا .. وكذا.. فذكر أشياء عـددها مما لهـم من المناقب والفضائل.

ثم بيَّن لهم لماذا أعطى غيرهم؟ لتأليف قلوبهم للإيمان، وقال: ((**أَلاَّ تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالـشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَـوْ لَا الْهِجْـرَةُ لَكُنْـتُ امْـرَأً مِـنَ الْأَنْـصَارِ، النَّـاسُ دِثَـارٌ**[2] **وَالأَنْصَارُ شِعَارٌ**[3] **وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَّ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ، إِنَّكُمْ سَـتَلْقَوْنَ بَعْـدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ**)).[4]

كأنه يقول لهم: أنتم أهلي وخاصة أمري والناس عامة، فذكر فضائلهم حتى بكوا فالصديق ﷺ،اتبع نهج النبي ﷺ فِي تعامله مع الأنصار ن في هذا الموقف، فقرر للأنصار فضلهم، وهذا لاشك من فقه أبي بكر ﷺ، وينبغي أن يستحضر هذا الأسلوبَ مع المخالفين المشهود لهم بالصدق والديانة، كُلُّ داعيةٍ مصلح.

فقد قال لهم: ((ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم أهل له، ولن يعـرف هـذا الأمـر إلاَّ لهـذا الحـي مـن قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين،فبايعوا أيهما شئتم)) فأقر مـا ذكروه،ثم ذكر لهم الحكم الشرعي.

---

(١) أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ المسند (٧٦/٣).

(٢) الشعار: الثوب الذي يلي الجسد ، اللباس الداخلي، انظر/ النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مادة [شعر] ص٤٨٢.

(٣) الدثار: اللباس الخارجي،وهو الثوب الذي يكون فوق الشعار انظر/ النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير مادة [دثر] ص٢٩٧

(٤) متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد ﷺ أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الطائف برقم ٤٣٣٠ ، ومسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبُّر من قوي إيمانه برقم ١٠٦١.

وهو أَنَّ الخلافة ــ فِي قريش، ولقد سمع ذلك من النبي ﷺ.

قال عمر ﭬ: فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة ب، وهو جالس بيننا قال: ((**وَلَمْ يَكُنْ فِي كَلِمَتِهِ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ هَذَا**)) ، ثم قال: ((**وَاللهِ أَنْ أُقَدَّم، فَتُضْرَبُ عُنِقِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَقَدَّمَ، أَوْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ**)).[1]

وفي بعض الروايات: أنَّهُ قال لهم: والله تعالى يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩] فسمانا الله الصادقين، فكونوا معنا فأذعن الصحابة له جميعًا بما قال.

شاهد المُقال: أنَّ الصديق ﭬ عالج خبر وفاة النبي ﷺ، وخبر موضع دفنه، وخبر الخلافة بالعلم الشرعي، وسار بسفينة الأمة إلى بر الأمان.

فائدة: أن ما يقع من الخلاف على قسمين:

خلاف تنوع، وخلاف تضاد [2]، ولعل كثيرًا من الخلاف من قسم خلاف التنوع، لكن الشيطان في أوقات الفتن يوسع دائرة الخلاف، يعمي الأبصار ويصم الأذان عن سماع القول الآخر.

بل إِنَّ من مخالفة منهج الصحابة أن يصم الإنسان أذنيه ويعمي عينيه عمَّن خالف قوله، أو قال بخلاف قوله، ويزيد الشر شرًا إذا اتهم الأشخاص، وطعن في المقاصد، ولم يكن هذا الطاعن الرامي على بصيرة من الأمر، ولا على دراية بالخبر، ولكن لمجرد عاطفة جياشة أو لمحاكاة زيد أو عمرو.

إنَّ حرص الصحابة ن على وحدة المجتمع وجمع الكلمة، وبخاصة في أوقات النوازل الكبيرة، وهذا الجمع وتلك الوحدة على حسب ما تقتضيه نصوص الشريعة يحسم الأمر كما رأينا.

إذًا مجرد التعصب لقول والانتصار له، وتبني هذا القول دون النظر والبحث والسؤال فِي الأقوال الأخرى أو فِي المخالفين، وأن يجعل نفسه هو المصيب وغيره هو المخطئ هذا، بهذا الأسلوب يفرق الكلمة، ويهدم البنيان، وهذا واضح معلوم لمن نظر في الحال، وقال بإنصاف فيمن خالف واتهم من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت برقم ٦٨٣٠، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١٥٤/٢).

(٢) انظر/ منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢١/٦).

خالفه وطعن فِي نيته، وقد يكون ذلك المطعون في نيته عنده من التقى والصلاح ما لو قسم على سبعين ممن طعن فيه لكفاهم ولفضل عن حاجته.

الوقفة العاشرة: قصة صلح الحديبية[1].

من مواقف رجوع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إلى الحق، هذا الموقف أو هذا الحدث الذي كان في عهد النبي ﷺ، وفي الحقيقة إنَّ هذا الحدث من أعظم الأحداث، ذلك لأنَّ كثيرًا من العقول تأباه وترده، في بداية الأمر وعند النظرة الأولى الظاهرة.

وناهيك عمَّا جاء في الروايات من أنَّ عمر ﷺ استبشع هذا الأمر في أوله وتكابر أنْ يكون هذا ؛ لكنه كعادته ﷺ سرعان ما رجع إلى الحق عندما تبيَّن له يأتي كُفَّار قريش، فيقولون للنبي ﷺ بعض شروطهم للصلح منها: ((**يَا مُحَمَّد مَنْ جَاءَكَ مِنَّا مُسْلِمًا تَرُدُّهُ إِلَيْنَا وَمَنْ جَاءَنَا مِنْكُمْ كَافِرًا لاَ نَرُدُّهُ لَكَ**)).

لو أنَّ هذا الشرط قُرِئَ على ملايين من المسلمين، ولم يكن عند بعضهم خبر الحديبية لأنكره الجميع، وقد وافق النَّبِيُّ ﷺ على ذلك، فجاء عمر إلى الرسول ﷺ: مستنكرًا هذا الشرط؟.

---

(١) انظر/ تفصيل القصة في سيرة ابن هشام (٣٠٨/٢ ــ ٣٢٣) والطبقات الكبرى لابن سعد (٩٤/٢ ـ١٠٥) وتاريخ الطبري(٧١/٣) وزاد المعاد لابن القيم(٢٥٥/٣ ـ ٢٦٧) وغيرها من مصادر السير والتاريخ وكتب السنة.

وقال: يَا نَبِيَّ الله! أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. قَالَأَلسنَا علىَ الحقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟، قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ . قَالَ: إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُو نَاصِرِي، قَالَ: يَا رَسُولُ الله! أَلَمْ تُحَدِّثْنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ، فَطُوفُ بِهِ ؟. قَالَ: بَلَى. فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قال: لا. فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمَطَّوِّفٌ بِهِ)).

فذهب عمر ﷺ إلى الصديق ﷺ لعل الأمر يتغير، وسأل الصديق ﷺ، كما سأل النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍألسنَا على حقٍّ وَهُمْ على بَاطِلٍ ؟، قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاهُمْ فِي النَّارِ ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَعَلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ .... فَقَالَ: ((يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّهُ رَسُولُ الله، وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ أَبَدًا، فَنزَلتْ سُورَةُ الْفَتْحِ))[1].

وفي رواية قَالَ: ((أَلَمْ يُخْبِرْنَا بِأَنَّا نَأْتِّي الْبَيْتَ ؟، قَالَ: نَعَم، لَكِن أَوَعَدَكَ الْعَام، قَالَ: لا.))[2] فكان الجواب متطابقًا، من النبي ﷺ، و أبي بكر ﷺ،فقد أجابه كما أجابه النبي ﷺ: بقوله: نعم. وانظر: إلى توافق العبارات.

قال ابن القيم / : ((وتطابق العبارات، يدل على تطابق القلوب))[3] .

فما صبر عمر ﷺ؛ لأنَّه كان شديدًا على الحقِّ ﷺ، كما روى الإمام أحمد في المسند أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْر، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ الله عُمَرُ))[4].

فذهب عمر ﷺ إلى رسول الله ﷺ أولًا: ثم لأبي بكر ﷺ ثانيًا؛ ولكن كان الجواب واحدًا، أيقبل العقل هذا الشرط؟ ... لا يقبل العقل! ؟ الصلح مع الكفرة؛ بل وفي ظاهر الأمر أنالشرط فيه حيفٌ ، وظلمٌ، وجورٌ لكن العاقبة للمتقين.

---

(١) متفق عليه من حديث سهل بن حنيف ﷺ أخرجه البخاري في عدة مواضع منها: في كتاب الجزية والموادعة، باب ١٨ برقم ٣١٨٢، وفي كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[الفتح:١٨] ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية برقم ١٧٨٥.

(٢) أخرجها البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط، برقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢.

(٣) انظر / زاد المعاد في هدي خير العباد فقد أورد نحو هذا الكلام، قال: ((والصديق تلقاه بالرضا والتسليم ـ يعني: صلح الحديبية ـ حتى كان قلبه فيه على قلب رسول الله ﷺ وأجاب عمر عما سأل عنه من ذلك بعين جواب رسول الله ﷺ)) (٢٦٩/٣)

(٤) سبق تخريجه في ص ٢١.

تأمل سير القصة انظر كيف سلَّم عمر ﷺ ولم يتردد ؛لأنَّ هذا أمر شرعيٌّ لا مناقشة فيه ولا مجادلة، وهنا يأتي الامتثال لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وفي الآية الأخرى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] فقد تأتي الأدلة الشرعية من خلال كلام أهل العلم تخفف ما في النُّفوس من الشهوات وتخالف ما في العقول من القناعات، فينبغي على صاحبها أن يأطرها أطرًا، وأنْ يقودها إلى حظيرة الحق ، وأن يسوقها سوقًا جميلًا.

وفي مواطن الفتن الكبيرة والنوازل قد تأتي بعض الفتاوى من كبار أهل العلم لا تقبلها النفوس، صحيح أنَّهُ قد يصعب على بعض النَّاس، ولكن يبقى الأدب الشرعي مع العلماء، ويبقى الأدب في المخالفة إنْ كان ولابدَّ أن تبدي وجهة نظرك لكن المصيبة والطامة التي تزيد الجرح ألمًا، وتزيد الجناية سرايةً أن يُطعن في النياتِ، وأنْ تُتَّهم المقاصد، وهذا كما تعلمون حمانا الله وإيَّاكم يهدم في المجتمع ولا يبني ويفسد ولا يصلح، وكُلنا يعلم ما الذي حصل في صلح الحديبية، كان ذلك الشرط من صالح الإسلام والمسلمين حتى جاءت قريش بنفسها تسعى راغمةً ذليلةً تطلب من النبي ﷺ إلغاء هذا الشرط ... لِمَ...؟ .

لأنَّ من أراد الإسلام من الكُفَّار عَلِمَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سيرده إليهم، إذن ما الذي ينبغي أن يكون ؟، قالوا: إذا أسلمنا لا نذهب إلى النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام ؛لأنَّه سَيُعيدنا إلى الكفَّار، ولكن نكون في موقع آخر، ونقاتل معه الكفرة، فأصبحت قريش تقابل جبهتين:

الأولى: فيها النَّبِيُّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه، **والثانية**: فيها من أسلم منهم فثقل الأمر عليهم وشقَّ عليهم، فجاءوا صاغرين راغمين راغبين إلى النَّبِيِّ عليه والصلاة السلام أن يتنازلَ عن ذلك الشرط، الذي لا يقبله العقل في بادي الأمر، وقد قبله النبي ﷺ ؛لكن من تأمل في النُّصُوص، وفي مقاصد الشريعة، وأنَّهَا مَبنيَّةٌ على جلب المصالح ودرء المفاسد وضحت له كثيرٌ من الصور جليةً لا غبار فيها.

فينبغي أن نديم القراءة في شروح هذه الأحاديث، وأن ننظر فيها فو الله لو أنَّ ركب هذه الصحوة المباركة، وهم كذلك إن شاء الله أداموا النظر في هذه النصوص .. نصوص النوازل والفتن، وكلام السلف في مصنفاتهم ومنهجهم فيها لصلحت كثيرٌ من أمورهم.

ولهذا ما أجمل ما نقل ابن مفلح الحنبلي ـ / ـ فِي ((الآداب الشرعية)) عن ابن عقيل الحنبلي ــ / ـ عندما قَالَ: ((لو تمسك النَّاس بالنَّصوص الشرعية، كما يتمسكون بعاداتهم وتقاليدهم لصلح كثير من أمورهم)).[1]

فعامةُ النَّاس قد تغيب عليهم النَّصوص؛ لكن المُصيبة أن يكون بعض المُعول عليهم يغفلون عن هذه الأمور، وفق الله الجميع للتمسك بالنصوص، ورزقنا وإيَّاكم التوفيق والسداد للقول والعمل، وشرح الله صدورنا وأقرَّ أعيننا بعز الإسلام والمسلمين إنَّهُ سميع مجيب.

الوقفة الحادية عشرة : بعض خصال الخلل في أصحاب الدعوات الإصلاحية.

إنَّ مما أصاب كثيرًا من أصحاب الدعوات الإصلاحية بالخلل المنهجي في دعوتها قلة العلم الشرعي عندها، سواء فِي المنظرين لها، أو كثرة الأتباع الذين تحكمهم العواطف فقط؟، والذي ينظر بعين البصيرة يرى مصداق ذلك، خلو تلك الدعوات من علماء لهم رسوخ في علم الشريعة، مما جلب عليهم شرًا كثيرًا، وحرمهم خيرًا كثيرًا.

والقناعات التي تقود أصحابها بغير نظر شرعي سرعان ما تنعكس عليهم وتكون الدائرة عليهم، ويقال: في هذا أيضًا إن من أسباب الخلل في حركات الإصلاح الإسلامية عدم التفريق بين العالم وبين غيره.

يقول ابن الجوزي / ـ في كتابه: ((القصاص والمذكرين)) ((العالم عند العوام من صعد المنبر))[1] .

وهذا من المقاييس الجائرة، قد يفتح الله على العبد في الشعر فيكون كـ(جرير زمانه، وقد يفتح على

---

(١) وعبارة ابن مفلح، قال: قال: أبو الوفاء ابن عقيل في الفنون: ((لو تمسك الناس بالشرعيات تمسكهم بالخرافات لاستقامت أمورهم)) (٣/٣٨٧)

العبد في الخطابة، فيكون أخطب من سحبان بن وائل، قد يفتح الله على العبد في الكتابة، فيكون قلمه سيالًا يتدفق، وقد يفتح الله على العبد في.... فعامة الناس قد تخفى عليهم بعض الأمور، لكن المصيبة أن يكون بعض المعول عليهم يغفلون عن هذا الأمر، شرح الله صدورنا للإيمان، وأقرَّ أعيننا بعز الإسلام وأهله إنه سميع مجيب.

ومن الخلل في الصحوة عدم التفريق بين صاحب العلم الشرعي المتلقى بالرواية والدراية، وبين من فتق لسانه بشعر أو خطابة، أو جرى قلمه بتعابير غالبها من الإنشاءات، والذي ينظر في الحركات الإسلامية السابقة والمعاصرة يرى أنَّ من أسباب خللها أنَّها تُقَدِّم من لا يستحق أنْ يُقدَّم، وليس هذا من باب الطعن، بل هذا من باب التقييم والتقويم للواقع بالميزان الشرعي المقياس المعتبر.

أمورٌ كبيرةٌ لو عرض أحدها على عمر ﷺ لجمع لها أهل بدر، وترى أنَّ بعض النَّاس ممن ليس له حظ من العلم الشرعي يَبُتُّ القَرَارَ فيها، ويجعل كلامه هو الذي لا يُرد ولا يُقارن، ولا يُجارى، ولعلَّ مما لُبِّسَ على كثيرٍ من النَّاس أنَّ من عنده قدرة على استقراء واقع المسلمين، ومعرفة كيد عدوهم أصبح له الصدارة في الحلول الشرعية، وكثيرٌ من الكُتَّاب الإسلاميين يقعون فِي هذا المُزلق.

قد يؤتى الإنسان قدرة على استقراء واقع المسلمين، ويعرف أحوالهم من ألفها إلى يائها بظرف الزمان والمكان، والإنسان قد يَعرف كل ما يحاك وكل ما حيك باستقرائه الشمولي وقراءاته المتكررة، هذا الاستقراء وهذا التتبع لا يشفع له أن يضع حلولاً شرعية كبيرة؛ لأُمة الإسلام، يقال لمثل هذا: ينتهي حَدُّك أن تعرض هذه البضاعة التي فُتِحَ عليك بها على أهل العلم.

وأهل العلم بحسب النُّصوص، والقواعد الشرعية، وحسب المصالح والمفاسد، ومقاصد الشريعة يفتون النَّاس في نازلتهم بما وصلهم من صادقي الأخبار، من ثقات النقلة؛ لكن إذا اختلطت الأوراق، وأصبح كل إنسان يتكلم في أمر الفتاوى الشرعية لمجرد أنَّه يُعدَّ من الشعراء الإسلاميين، أو من الخطباء الفصحاء، أو من أصحاب الأقلام السَّيَّالة، فهنا يحصل اللبّس.

---

(١) القصاص والمذكرين ص ١٥٨.

ولهذا ترى أنَّ السلف الصالح ــ عليهم رحمة الله ـ من الصحابة، ومن بعدهم كانوا لا يخوضون فيما لا يحسنون؛ بل يسأل أحدهم أهل العلم عمَّا يُشكل عليه؟.

فالصحابة ن يتفاوتون في العلم، كما يتفاوتون في الفضل، فالنَّبيُّ ﷺ يقول: ((**أَعْلَمُ أُمَّتِّي بِالْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ، وَأَقْرَأُهُمْ أُبَيٌّ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدٌ ن**))[1].

ولا يعني: هذا التفضيل أن فلانًا يجهل العلم الآخر بالكليَّة.. لا ، لكن يكون فلان أمكن منه وأولى بالكلام في هذا العلم.

فلهذا تلاحظ في سلبيات الحركات الإصلاحية عدم التفريق عند سوادٍ كثيرٍ من أتباعها وبخاصة من الناشئة... بين العالم الذي يُستفتى في النوازل، وبين غير العالم، ولهذا كان من مأثور كلمات أهل العلم: ((من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب)) ومن سديد قواعد أهل المغرب ما نقله الذهبي: ((أنهم يتركون الأخذ عن من لا يحكم الفن)) [2].

الوقفة الثانية عشرة: البُعدُ عن حُبِّ التَّصدُّر والشهرة:

من منهج الصحابة، ومن أثر تربية النبي ﷺ البُعد عن حب التَّصدُّر والشهرة وقد سبق أن ذكرنا أن جيل الصحابة ن أطهر جيل وطئ الحصى بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومع ذلك كانوا أبعد النَّاس عن حُبِّ التَّصدر، وعن حُبِّ الظهور، ويكفيك أن سيِّدهم بعد نبيهم ﷺ الصديق ؓ كان من أبعد النَّاس عن حبِّ التَّصدر والظهور؛ بل كان قصده الأسمى وغايته العظمى في السقيفة أن تجتمع

(١) سبق تخريجه، وقد أورده ابن حبان برقم ٧١٣١، ٧١٣٧، ٧٢٥٢، وصححه الحاكم في المستدرك برقم ٥٧٨٤.

(٢) معرفة القراء الكبار للإمام الذهبي ص ٥٣٠.

كلمة المسلمين وأن يوحد صفهم، ولَمَّا رأى أنَّ الكلمة قد قاربت على الاجتماع في السقيفة اعتذر عن الإمارة، ووكل الأمر إلى أهل الحل والعقد أن يختاروا عمر أو أبا عبيدة ب.

وحب الظهور كما يقال: من قواصم الظهور، كانوا ن من أبعد النَّاس عن ذلك، فهذا الصديق ﷺ يؤثر على نفسه، وهو يعرف أَنَّهُ أحق النَّاس بذلك ؛لأن مراده وغايته أنْ يصلح أمر الأمة، وهذا عمر ﷺ يُعَارِض أشدَّ المعارضة، ويأبي أن يتولى غير أبي بكر لعلم عمر ﷺ أنْ لا يتقدَّم أحدٌ على أبي بكر في حياته، ولهذا قال الصديق ﷺ : ((**وَاللهِ مَا سَأَلْتُ الْإِمَارَةَ فِي دُعَاء سِرٍّ، وَلَا عَلَانِيَّةٍ، وَلَا تَاقَتْ لَهَا نَفْسِّي؛ وَلَكِنْ مِنْ بَابِ الرَّحْمَةِ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ**)) [1].

هذا يدلنا على الخلل الواضح فيمن أراد التصدر والشهرة حتى يقال: هذا فلان، وقال فلان، وجاء فلان ... نعم هناك أحوال تستدعي من الإنسان أنْ يُظهر نفسه فيها إذا علم أن هذا الأمر لا يتم إلاَّ بوجوده، فيتقدم لهذا قال بعض العلماء: مدح الشخص لنفسه تارةً يكون مذمومًا، وتارةً قد يكون محمودًا . [2]

وقد جاءت الآيات في ذم تزكية النفس، قال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢] لا حظ ربط التقوى بأمر التزكية، إنَّ غالب من يزكي نفسه فإنَّ في تقواه خللاً وضُعفًا، قال تعالى:﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٩].

وفي صحيح مسلم قال ﷺ: ((لاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ)) [3].

وكان السلف الصالح على هذا المنهج، فقد كان الإمام أحمد ـ/ ـ يوصي بعض تلاميذه فيقول: ((إِيَّاكَ وَالشُّهْرَة، فَإِنِّي قَدْ بُلِيتُ بِهَا)) [4].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم ٤٤٢٢،

(٢) قال ابن كثير ﵀ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥] مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره.

(٣) أخرجه مسلم من حديث زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها في كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى أحسن ... برقم ٢١٤٢.

(٤) انظر/ سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٠) ومعالم في طريق طلب العلم للمؤلف ص٢٢.

وشعبة يقول: لم أر أحدًا أبعد وأبغض للشهرة من أيوب السختياني ـ/ ـ، وكنت أماشيه فكان يُخالف الطريق حتى لا يعرفه أحد،[1] فَحُبُّ الظهور من قواصم الظهور؛ حُبُّ تزكية النَّفس يُنافِي عبادة المتقين، نعم تكون التزكية محمودةً، إذا علمت أنَّ هذا الخير لا يقوم إلا بوجودك أنت، كما قال نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥] علم يوسف عليه الصلاة والسلام أن أمر الخزائن إذا أخذه غيره فسيضيع وعلم من نفسه الكفاءة والقدرة، فأدار الأمور على أحسن حال.

فشاهد القول: أنَّ طالب العلم ينبغي أن يعلمَ أن حبُّ تزكية النفس وحبُّ الظهور يُخالف منهج الصحابة الذين رباهم عليه النبي ﷺ.

وإنَّ من الآفات في مجتمع الصحوة الحرص على التصدر، والحرص على مسابقة وقته وزمنه.

فترى أنَّ بعض النَّاس إذا صدَّره النَّاس وأثنوا عليه ربما تغلبه نفسه، وربما تقحمه نفسه في أمورٍ فيها هلاكه بأن يقول بلا علم؛ لأنَّه إذا صدَّره النَّاس يصعبُ عليه أن يقول: لا أدري، وهذا لاشك من الجهالة، والنبي ﷺ قد حذَّر من حُبِّ التَّصدر بحديث كان بعض السلف يقول: ((أشدُّ ما وجدت من السُّنَّةِ هذا الحديث))

وهو الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ((**أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمْ النَّارُ ثَلاَثَةٌ: رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاقْرَأَهُ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا، قَالَ: يَا رَبِّ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ، وَأَقْرَأْتُهُ فِيكَ؟ قَالَ: كَذَبْتَ**)). وانظر إلى الخطاب ما قال: أخطأت ؛لأنَّ الخطأ يقابل الصواب، وإنَّما قال: كذبت لأنَّ الكذبَ يُخالف الصدق ((**وَإِنَّمَا قَرَأْتَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ،عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ**))[2] فالإنسان لا بد أن يحرص ويتفطن لهذا الأمر.

الوقفة الثالثة عشرة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) انظر/ سير أعلام النبلاء (٦/٢٢) ومعالم في طريق طلب العلم للمؤلف ص٢٢.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله برقم ١٩٠٥ بلفظ : ((**إِنَّ أَوَّلَ النَّاس يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَّامَةِ رَجُلٌ استَشْهَدَ**...ثم ذكره.

ومن منهج الصحابة رضي الله عنهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذه الشعيرة الواجبة التي هي وظيفة الأنبياء والمرسلين وعباد الصالحين، والتي فضَّل الله بها هذه الأمة على سائر الأمم، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾: [آل عمران: ١١٠]] والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يكون بعلم وحلم، وهذا القيد لا بدَّ منه لتؤتي دعوة الداعي ثمارها لأن الأمر بالمعروف إذا لم يكن بعلم أصبح أمرًا بالمنكر.

والنبي ﷺ بدأ حياته وختمها آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر.. بل كل دعوته قائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففي أول دعوته البدء بالتوحيد، وفي أخرها الحث على التوحيد. فكان عليه الصلاة والسلام يحذر من اتخاذ القبور على المساجد يحذر ما صنعوا، وحذر ودعا ربه أن لا يتخذ أو يجعل هناك عيد عند قبره، وأوصى وكان من أخر كلماته: الصلاة، الصلاة وما ملكت أيمانكم، وسار على نهجه أصحابه الكرام، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وقبله الصديق في ساعة احتضار ه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينشر العلم. ، يأتي شاب أنصاري وعمر في ساعاته الأخيرة، ويثني عليه ويذكر له ما فتح الله عليه وما أفاء الله عليه من النعم بفتح الأمصار، ومن دخول الناس في الدين أفواجًا، ثم يذهب ذلك الشاب الأنصاري وهنا وقفة:

وهي أن من أصعب الأمور على النفس أن تنصح من مدحك، وأن تخطئ من أيَّدك، فهذا قد يصعب على كثير إلا من رحم الله، فانظر إلى موقف ذلك الشاب يثني على عمر ويذكر بعض فضائله ومناقبه وشمائله، ثم لما ولي مدبرًا رأى عمر رضي الله عنه ثوب الشاب فيه إسبال يسترخي يمس الأرض، فقال: ((**رُدُّوا عَلَيَّ الْغُلَامِ**))،وقَال له: ((**يَا ابْنَ أَخِي ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فَإِنَّهُ أَتْقَى لِرَبِّكَ، وَأَنْقَى لِثَوْبِكَ**))[1].

فهذا الخبر فيه فوائد منهجية كثيرة منها:

١/ من أعظمها استمرار صاحب العلم وداعي الخير في الأمر بالمعروف في كل أحواله.

٢/ إن صاحب العلم لا يثنيه عن نشر علمه مدح مادحين، ولا ثناء مثنين، إن ثناء الناس على الشخص قد يحجب عنهم خيره، أو قد يضعف عن إيصال النصح لهم.

---

(١) أخرجه البخاري عن عمرو بن ميمون رضي الله عنه في كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة برقم ٣٧٠٠

وانظر هذا في نفسك، فإن كنت معافى فاحمد الله، وإن كنت مبتلىً فاسأل الله العافية، تجد أن صاحب المعروف إذا أخطأ، أو عصى يصعب عليك تنبيهه، وكذلك المادح لك.

ولهذا رأينا من شيخنا ووالدنا الشيخ عبد العزيز باز عجبًا فِي هذا الشأن كذلك من فقيه الإسلام الشيخ صالح بن عثميين رحمهما الله تعالى جميعًا.

ترى أن الشاعر يصدح بقصيدته يمدح الشيخين فتجد أن الشيخ يقاطعه أمام الناس بلا مداهنته ولا مجاملة هذا خطأ في العقيدة، وهذا غلو في القول، وهذا منكر من التصوف مع أن المدح أمام مجامع الناس، ولكن صاحب العلم والصدق والديانة لا يردعه عن إيصالالحق ّ مدح المادحين ولا ثناء المُثنين. نعم، هناك تلطف لمن أخطأ وتروى وأحسن الظن بمن أخطأ؛ لكن لابدَّ أن تبيِّن له الخطأ.

الوقفة الرابعة عشرة: حرص الصحابة على طلب العلم.

لقد عني الصحابة ن بطلب العلم فاجتهدوا في ذلك وحرصوا عليه، والأمثلة في هذا كثيرة: وقصة مالك بن الحويرث ﷺ الآنفة الذكر من أوضح الأدلة على ذلك لذا يقال: لمن يتولى تربية شباب المسلمين: اعلم أن منهج الصحابة ن في التربية أنهم يربون ناشئتهم وشبابهم على العلم الشرعي في أقوالهم وأفعالهم، وفي جميع تصرفاتهم، ولا تفهم من هذا أنَّه يلزم كل أحد أن يجثو على ركبتيه عند أهل العلم، فهذا قد يكون من الكمال البشري المحدود؛ لكن لا يستطيعه كل أحد.

لكن المراد والقصد: أن من تتولى تربيتهم ينبغي أن يصحح منهجهم على حسب الأدلة الشرعية، وأن ينشئهم نشأةً صالحة؛ لذلك كان ابن مسعود ﷺ يقول: كنا لا نتجاوز عشر آيات حتى نعلمها ونعمل بها.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ــ / ــ في مقدمة التفسير أن النبي ﷺ كان يُعنى بتعليم الصحابة العلم بمعاني الآيات، كما يلقنهم حروف الآيات وألفاظها.

وأيضًا: انظر كيف كان ابن عباس ب فيما يقول عنه تلميذه ومولاه عكرمة ــ / ــ: كان ابن عباس يضع القيد في رجلي حتى لا أنصرف، ثم يعلمني ما جهلت، وينشئني على العلم، وابن عباس ب كان حريصًا على الطلب والتلقي فقد مكث سنة كاملة يتمنى أن يزيل عنه عمر إشكالًا عن نفسه؛ لكن هيبة

لعمر ما استطاع أن يسأله إلا بعد سنة، سأله عن المراد بالمرأتين اللتين تظاهرتا، فقال: حفصة وعائشة ب. [1]

فيلزم من يتولى تربية شباب المسلمين أن يعلم أنَّ منهج الصحابة أنهم يربون ناشئتهم على وفق الأدلة الشرعية في جميع أمورهم في العقيدة وفي العبادات وفي المعاملات وفي السلوك والرقائق وفي كل شئونهم، وأن من الظلم لهؤلاء الشبيبة ولأمهاتهم وآبائهم أن ينشئوا على مذاهب مخالفة للأدلة الشرعية مخالفة لمنهج سلف الأمة.

والنبي ﷺ.يقول: ((**وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ، فَقَدْ خَانَهُ**)) [2] وأي: خيانة أعظم من أن تربى الشبيبة على غير الطريقة الشرعية الموافقة لمنهج سلف الأمة.

فهؤلاء الشبيبة أمانة في أعناق من تولى تربيتهم وسيسأل عنهم[إن أحسن فله ولهم، وإن أساء فعليه ولهم، فإن فعل كما فعل الصحابة ن لهؤلاء الشبيبة الذين تولوا تربيتهم خَرَّج العلماء ... وخَرَّج القادة، وخَرَّج القُرَّاء، وخَرَّج الفقهاء، والتابعون رحمهم الله هم من طلاب الصحابة، وانظر كيف عمَّ فضل الله تعالى جيل التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فقل لي بربك كم يجري من الأجور عليهم، وعلى معلميهم، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء! فهنيئًا لمن أحسن تربية من وثق الأمهات والآباء بهم، وعزاء لأولئك الأمهات والآباء الذين وضعوا أبناءهم عند من لا يحسن تربية نفسه فضلًا عن أن يحسن تربية غيره، وليس العيب أنك تخطئُ، إنما العيب أن تصر على خطئك، فكل بني آدم خطاء، وخير الخطَّائين التوابون، ألا يسرك أن ترى شبيبة تربوا على يديك بعد فضل الله تعالى، هذا يغير مجرى التاريخ عالم راسخ ينشر العلم، ويقيم السنَّة ويحارب البدعة، وذاك خطيب على علم وبصيرة، وهلم جرًّا...

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في عدة مواضع منها في كتاب التفسير، باب ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ [التحريم:٢] برقم ٤٩١٣، ومسلم في كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن برقم ١٤٧٩.

(٢) أخرجه أبوداد في كتاب العلم، باب التوقي في الفتيا برقم ٣٦٥٨، والحاكم في المستدرك برقم ٣٤٩ وصححه ووافقه الذهبي (١٠٣/١).

فالحذر كل الحذر من تضييع الأمانة، وليس المراد منهج التجمع وكثرة السواد فـو الله إن شـابًّا واحـدًا ينشأُ على علم شرعي، وفق منهج سلف الأمة خير للمسلمين والمجتمع من مئات الآلاف من مثله ممـن لم يَتربَّ على علم شرعي؛ بل تربى على عواطف جياشة.

فهذا سماحة الشيخ ابن باز ـ / ـ لو لم يكن للشيخ محمد بن إبراهيم ـ / ــ إلا هذا العـالم الفحـل لكفاه فخرًا، ولو لم يكن للشيخ عبد الرحمن السعدي ـ / ــ إلا ذلك الفقيه الفحل ابن عثيمين ــ / ــ لكفاه فخرًا، فكيف إذا كان معهم ثلة من إخوانهم ممن مات قبلهم، أو بعـدهم، وممـن لا يـزال حيًّـا بـين أظهرنا، يقوم بدوره ويؤدي رسالته. على الوجه الأكمل

فلينظر من يتولى تربية الشباب وليعلم أنَّ هذه مسؤولية عظيمة إن أحسن فليبشر بالخير مـن الله جـلَّ وعلا، ثم من الناس بالدعاء، وإن كانت الأخرى، فلا يجني جانٍ إلا على نفسه.

الوقفة الخامسة عشرة: المنهج التطبيقي العملي للعلم.

وهذا الأمر قد فصَّل فيه كثير من دعاة الخير، بأن التعليم بالقدوة الفعلية قـد يكـون أحيانًـا أبلـغ مـن القدوة القولية، أو بمعنى آخر التمثيل أو التعليم بطريقة الفعل يكون أبلغ من وسيلة القول.

وقد نهج هذا المنهج أصحاب النبي ﷺ اقتداء بنبيهم ﷺ، فقد توضأ النبي ﷺ مرة، مـرة أمـام أصـحابه ن، يعني: غسل كل عضو مرة، مرة، قال البخاري في كتاب الوضوء،((باب: الوضوء مرة، مرة)) و ساق حديث عبد الله بن عباس ب. ثم قال: ((باب الوضوء مرتين، مرتين)) وساق حديث عبد الله بـن زيـد رضي الله عنه.[1]

ثم قال: ((باب الوضوء ثلاثًا، ثلاثًا)) وساق حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه:((توضأ النبـي ﷺ ثلاثًـا)) متفق عليه[2] . وفي بعض الروايات في غير الصحيحين أنَّه قال: ((**هَذَا وُضُوءُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قبلي، فمـن زاد**

---

(١) أخرجهما في صحيحه برقم ١٥٧، ١٥٨..

(٢) أخرجه برقم ١٥٩، ومسلم في كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله برقم ٢٢٦.

عليه، فقد أساء وتعدَّى وظلمَ))[1] . توضأ ورآه الناس بأعينهم، وعثمان بن عفان ﷺ كما في الصحيح دعا بطست، فتوضأ أمام الناس وأخبرهم أن هذا هو الوضوء النبوي الذي كان يتوضؤه النبي ﷺ .

كما أنَّ أحد الصحابة يطلب من بعض الناس أن يصلي بهم فيقول: ((ما صليت لأني أعلمكم، ولكن لأ ريكم كيف صلى بنا النبي ﷺ))..

والنبي ﷺ يقول لمالك بن الحويرث، ومن معه من أصحابه ن: ((**ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم**)) والعلم يكون بالقول والفعل ((ومروهم))، وجاء في بعض الروايات ((**وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**)) [2].

هذا التطبيق العملي لبعض الأحكام الشرعية قد يكون أكثر إقناعًا وإيصالًا للعلم لكثير من الناس، وبخاصة فيما يتعلق بعمل اليوم والليلة.

الوقفة السادسة عشرة: توظيف طاقة الطلاب حسب مقدرتهم.

إن من منهج الصحابة ن توظيف تلاميذهم بحسب طاقاتهم الذهنية، ومداركهم العقلية، وإمكاناتهم الفكرية والعلمية، فقد يفتح الله تعالى على شاب فِي الخطابة، وآخر في القراءة والتلاوة، وثالث في إنشاد الشعر، فتتفتق قريحته الشعرية، والطاقات كثيرة؛ لكن من الخلل أن تقتل هذه الطاقات في مهدها، أو أن توظف في خلاف ما فطرت وجبلت عليه، أو أن تستغل في خلاف المنهج السليم،فيحصل خلل في توظيف هذه الطاقات.

فأنت تعلم أن الصحابة ن ومن بعدهم من التابعين كانوا يتفاوتون في التحصيل، فبعضهم كما سبق آنِفًا قد يبرز في فن لا يلحقه فيه أخوه، وقد يتفوق عليه أخوه في فن آخر لا يلحقه هو فيه؛ لكن المظلة الشرعية أن العمل بجميع هذه الطاقات لا يكون إلا وفق الأدلة الشرعية، وأن من الخلل في التربية أن تُستغل طاقة شاب دون القيود الشرعية.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه في أبواب جماع الوضوء وسننه، باب التغليظ في غسل أعضاء الوضوء أكثر من ثلاث وأن فاعله مسيء ظالم معتد برقم ١٧٤، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٣٧٨.، وأصله في سنن أبي داود في كتاب الطهارة، باب الوضوء ثلاثًا ثلاثًا برقم ١٣٥

(٢) سبق تخريجه

فمثلًا شاب فُتح عليه في الشعر، وقد ضعف عن طلب العلم فيقال: لمن يتولى تربيته: إنَّ من الديانة والأمانة، والمسئولية أن لا يلقي قصيدة على أسماع الناس حتى تمر على المجهر الشرعي في ضوء الأدلة الشرعية.

وهكذا الخطيب الذي يريد أن يرتقي المنبر إذا ضعف عن الجثو بالركب عند العلماء لتلقي العلم، يقال له: لا تتقدم بالكلام حتى تعرض ما تكتب وما ستقول على أهل العلم الشرعي الموثوق بمناهجهم، وصلاح عقائدهم حتى يصححوا لك مقالتك، وكذا في سائر الطاقات الأخرى؛ لكن من المصيبة أن يساعد أعداء الإسلام في الداخل والخارج على خرق السفينة، وأن نلبس ثيابًا غير ثيابنا.

فترى من فتح عليه بشعر يتولى الفتيا في الأمور الكبيرة، ولم يُعرف بطلب العلم، فضلًا عن أن ينازع أهله، أو من فتح عليه بخطابة أو بكتابة... أو .. أو .. يتصدَّر للفتوى فهذا من الخلل، و لم تُصَبْ الحركات الإسلامية الإصلاحية السابقة من النكبات والويلات إلا بالخلط في هذه المفاهيم، لا فرق بين الشاعر والعالم والخطيب والكاتب إذا كان كل منهم يغار على الإسلام، فكل له اجتهاده وكل له رأيه وحكمه ونظره، لا. وألف لا؟!.

العالم شيء والشاعر الغيور شيء آخر شتان بين الاثنين، ولهذا ما أجمل ما قاله الذهبي في كتابه القيم تذكرة الحفاظ لَمَّا ذكر ترجمة الحليمي[1] من أئمة الشافعية.

ومنهج الذهبي: أنه يترجم للراوي بذكر اسمه ونسبه، ومولده، وبعض شيوخه وتلاميذه، وبعض مناقبه ووفاته،.ثم يسوق له إسنادًا من روايته، ويمر بهذا الرجل المترجم إلى النبي ﷺ

فذكر حديثًا في ترجمة الحليمي عن أنس بن مالك ﷺ: قال: قال رسول الله ﷺ **((لِخَاتم القرآن دعوة مستجابة عند ختمه))**، ثم قال: وفي إسناد الحديث نوح الجامع مع جلالته في العلم ترك حديثه، وكذا شيخه مع عبادته ــ وهو يزيد الرقاشي في سند هذا الخبر ــ، فكم من إمام في فن مقصر في غيره، كسيبويه مثلًا إمام في النحو ولا يدري ما الحديث، ــ لو جاء رجل وقال: هذا الحديث ذكره سيبويه في كتابه وهو صحيح، لا يقبل قوله لمَ.. ؟ لأن سيبويه عالم في النحو لا في الحديث! ...يقال: هذا يدل على قلة علمك،

(١) هو العلامة البارع رئيس أهل الحديث بما وراء النهر أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري صاحب وجوه حسان في المذهب، ولد سنة [٣٣٨هـ] وتوفي سنة [٤٠٣هـ] انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ترجمة رقم ٩٥٩.

فسيبويه مقامه على الرأس والعين فيما يتعلق بلغة العرب، أمَّا في الحديث فليس من بابه، نعم قد يفتح الله تعالى على العالم بأكثر من فن؛ لكن الإنسان يتكلم مع واقعه ـــــ .

وأبو نواس: رأس في الشعر عريٌ من غيره، وعبد الرحمن بن مهدي إمام في الحديث لا يدري ما الطب قط، وكمحمد بن الحسن رأس في الفقه، ولا يدري ما القراءات، وكحفص إمام في القراءة، تالف في الحديث)) [1].

وقد نقل الحافظ المزي في تهذيب الكمال تضعيف أئمة الحديث له، وقال: هو نوح بن أبي مريم، ويكنى بأبي عصمة المروزي، قال فيه ابن حبان ((جمع كل شيء إلَّا الصدق))[2]

فالمصيبة في هذه الصحوة، أو في المحسوبين عليها أن يأتي رجل له خبرة في القراءات فيستفتى في النوازل الكبيرة، إن كان عنده علم شرعي في المعتقد والسياسة الشرعية فلا بأس ، أمَّا بمجرد أنه برع في القراءات يستفتى في النوازل الكبيرة، أو أنه لـمَّا برع في الشعر أو كان فصيح اللسان يستفتى في عظائم الأمور ... ؟ لا. والله، هذا والله من الخلل الكبير الذي يعيق سير ركب هذه الصحوة المباركة أن تؤتي ثمارها.

الوقفة السابعة عشرة: التحذير من القول بلا علم.

الحذر والتحذير من القول بلا علم، فهذا الأمر من الأساسيات والركائز فِي منهج الصحابة ن في جميع شؤونهم سواء أكان القول،في الفتيا خاصة، أو عامة مع أوليائهم، أو مع أعدائهم.

والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب؛ بل هو أعظم ذنب عصي الله تعالى به، فإن قال قائل: أليس الشرك أعظم ذنبٍ ؟ قيل: بلى؛ لكن الشرك متفرع عن القول على الله بلا علم.

ولهذا قال ابن القيم في أعلام الموقعين: [3]((وقد حرَّم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها، فقد رتب الموبقات، وبدأ بأخفها بالنسبة لما بعدها، وختم بأعظمها فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ

(١) انظر تذكرة الحفاظ (١٥٦/٣) ترجمة رقم ٩٥٨.

(٢) انظر/ تهذيب الكمال (٣٠٦١) كما نقله الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب(٤٣٤/١٠)

(٣)انظر/ في ((فصل المحرمات على أربعه مراتب)) ٣٦.

﴾ وأعظم منه: ﴿ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وأعظم منه: ﴿ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾ وأعظم منه: ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

فالقول على الله تعالى بلا علم منه نشأ الشرك؛ لأن المشرك وضع العبادة في غير موضعها، فقال على الله تعالى بلا علم.

والله جلَّ وعلا قد عاتب نبيه نوحًا عليه السلام، فقال: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ ﴾ [هو:٣٣] ، وأنكر على أهل الكتابين فقال: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٦].

وأدب نبيه وخليله محمدًا ﷺ فقال: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ ﴾ [الإسراء:٣٦].

وحذا الصحابة في هذا نحو ما نصت عليه الآيات الكثيرة، واقتدوا بالنبي ﷺ، فقد كان عليه الصلاة يُسأل عن الشيء ليس له به علم، فيسكت كما في مسألة الروح: أنَّ نفرًا من اليهود سألوه عليه الصلاة والسلام عن الروح، فأمسك ولم يتكلم حتى أنزلت الآية: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ ﴾ [الإسراء: ٨٥] [١] وكان ﷺ يقول: ((لا أدري)) فيما لم ليس له به علم، ولم يأت به إليه وحيٌّ، فقال عليه الصلاة والسلام: عندما سئل عن تُبَّع، وذي القرنين قال: ((مَا أَدْرِي أَتُبَّع لعينًا أم لا؟ وما أدري ذو القرنين نبيًّا كان أم لا ؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟ أو كما قال ﷺ. [٢]

على هذا المنهج نهج الصحابة ن فتأتي الجَدَّةُ إلى الصديق فتسأله عن ميراثها فيقول: أمَّا في كتاب الله، فلا أجد لكِ شيئًا، وأمَّا في السنَّة، فلا أعلم شيئًا، فيقوم المغيرة بن شعبة ﷺ، فيقول فرض لها النبي ﷺ

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب قوله تعالى:﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء:٨٥] برقم ١٢٥ ، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح برقم ٢٧٩٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب البيوع برقم ٢١٧٤ (١٤/٢) وكرره في كتاب التفسير برقم ٣٦٨٢(٤٥٠/٢) وصححه في الموضعين ووافقه الذهبي، وأخرج أبو داود جزءه المتعلق بتبع، مع زيادة عزير فقط في كتاب السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم السلام برقم٤٦٧٤..

السدس، أو أعطاها السدس؟ فيقول: من يشهد معك ؟ فيقوم محمد بن مسلمة، فيؤكد مقولة المغيرة ب.[1]

ويأتي ابن عمر رجل فسأله عن شيءٍ فقال: لا أدري[2] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كانوا يتورعون أشدَّ التورع من أن يفتوا بما لم يتأكدوا من صحته، كما كانوا لا يترددون أن يتراجعوا عن قولهم إذا علموا أنَّه مخالف للدليل الشرعي، وقد سبق أمثلة رجوع عمر وسعد وغيرهما.

فهذا الصحابي الجليل أبو هريرة ﵁ يفتي رجلًا في السوق، فلما دخل الرجل في غمار الناس واختفى أثره تفطن الصحابي ﵁ إلى خطئه، فدخل في السوق فالتفت يمنة ويسرة يبحث عنه، فلما يئس من العثور عليه نادى في السوق يا أهل السوق من نقل لكم عن أبي هريرة أنَّه أفتى بكذا، فقد أخطأ وها أنا ذا راجع على أسماعكم،أو على مسامعكم.

هذا هو الدين، وهذا هو الورع، وعلى هذا المنوال درج أئمة الإسلام، فالإمام شيخ الإسلام ابن تيمية / .. على جلاله قدره وعلى علو كعبه ورفعة منزلته في العلوم العقلية والنقلية يذكر تلميذه ابن كثير في تفسيره عند آية المحرمات من النساء، وبالتحديد عند قوله تعالى: ﴿ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم ﴾ [النساء:٢٣] يذكر أثرًا عن مالك بن أوس بن الحدثان ﵁ أنه أتى إلى عليٍّ ﵁ فسأله علي أين أنت ؟ . قال: مات أهلي، فقال: أعندك ربيبة ؟ . قال: نعم. قال: أين أخوالها؟، قال : بالطائف . قال تزوجها،قال: ألم يقل الله تعالى: ﴿ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ قال عليٌّ ﵁: هل هي في حجرك إنما عند أخوالها، قال ابن كثير: وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي أنه قال: عرضت هذا الأثر على شيخ الإسلام، فتوقف فيه.[3]

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الفرائض، باب في الجدة برقم ٢٨٩٤ ، والترمذي في أبواب الفرائض عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في ميراث الجدة برقم ٢١٠٠ ، ٢١٠١ ، وقال: هذا حديث حسن صحيح، .وابن ماجه في أبواب الفرائض ، باب ميراث الجدة برقم ٢٧٢٤ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك برقم ٧٩٧٨ وصححه ووافقه الذهبي (٤/٢٢٩).

(٢) جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/٦٥).

(٣) انظر/ تفسير ابن كثير في سورة النساء: الآية ٢٣

وابن حزم ــ / ــ في كتابه حجة الوداع: يقول: قد تبين لي الأمر في أمر المناسك إلا في موضعين اثنين: أين صلى رسول الله ﷺ الظهر يوم النحر ــ يوم العيد الأضحى ــ هل صلى في مكة، (في الحرم) أو في منى، ثم قال: فمن استبان له ما أشكل علينا منه يوما ما فليثبت إلى ما جمعنا وليقتني بذلك الأجر من الله تعالى.[١].

والإمام الذهبي توقف فِي عمر سلمان الفارسي ﷺ وتردد في عمره مرة، قال: كذا، ومرة قال: كذا، ثم يحجم، فيطلب من القارئ أن يدله على الصواب في ذلك قائلًا فمن كان عنده علم فليفدنا .[٢] وليعلم بذلك أن التوقف ليس هو المراد فحسب؛ بل لو أخطأ الإنسان وخالف الدليل رجع واعترف بخطئه إذا تبين له الدليل، وأنه يخالف قوله ولم يتردد في الرجوع؛ بل يتقرب إلى ربه بإخبار قومه، أو من أفتاهم بأن قوله لا قيمة له إذا خالف الدليل.

وأيضًا سار على هذا أئمة الدين وعلى رأسهم أئمة المذاهب المتبوعة، وقد أحسن الناظم في نظمه مقولتهم ؛لأن كُلًّا منهم يقول: حرام على من يأخذ قولي بغير دليل، وقد نظم بعضهم تلك الأقوال في أحد الأدلة المصاحبة للفتيا، وترك القول إذا خالف الدليل بقوله:

قال أبو حنيفة الإمام ** لا ينبغي لِمن له إسلام

أخذا بأقوالي حتى تعرضا** على الحديث والكتاب المرتضى

ومالك إمام دار الهجرة** قال وقد أشار نحو الحجرة

كل الكلام منه ذو قبول** ومنه مردود سوى الرسول ﷺ

والشافعي قال: إن رأيتم ** قولي مخالفًا لما رويت

من الحديث فاضربوا الجدار** بقولي المخالف الأخبار

وأحمد قال لهم لا تكتبوا** ما قلته بل أصل ذلك اطلبوا

دينك لا تقلد الرجال ** حتى ترى أولاهم مقالا [٣]

فمن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية ينبغي لطالب العلم أن

---

(١) كتاب حجة الوداع لابن حزم ص ١٣، وص ٢٨

(٢) انظر/ سير أعلام النبلاء له (١/٥٥٦) .

(٣) انظر/ مقدمة كتاب السلسبيل للشيخ صالح البليهي ص ٥، وقد نسب الأبيات إلى محمد بن سعيد المتوفى في المدينة عام ١١٩٢م.

يأخذ منها العلم والأدب بها، وأن يعرف خطورة القول على الله بلا علم، وأن لا يتردد أو يتحرج إذا أخطا أن يقول: أخطأت، وإذا خالف الدليل، أن يقول خالفت الدليل.

فهذا من الديانة؛ بل من أعظم القربات ؛لأن العلم دائرة تتسع بحسب من سمع الجواب وإن من الخلل في المنهج الدعوى: الجراءة على إصدار الفتاوى في النوازل الكبيرة، وأعظم من ذلك مساواة أناس لم يعرفوا بالعلم ــ فضلًا عن التضلع فيه ــ، أن يساووا بعلماء الشريعة وبعلماء السنةأ وهذا والله، من الجهل، ومن الخيانة للأمة وشبابها أن يوضع في مصاف علماء السنة أناس ليسوا من طلبة العلم فضلًا من أن يكونوا من العلماء الربانيين الراسخين.

فالحذر كل الحذر من هذا الخلط، وليحذر طالب العلم إذا صدَّره قومه، أو صدَّرته عشيرته أن يتحرج من قول: لا أدري، فبعض الناس يثقل عليهم قول: لا أدري فيظن أن قوله: لا أدري ينقص قدره عند الناس، أو تقل منزلته عندهم، وهذا من تلبيس إبليس ــ أعاذنا الله منه، ووقانا شره ــ؛ بل التقرب إلى الله،أن يقول: لا أدري. ولهذا كان السلف رحمهم الله تعالى يورثون طلابهم قول: لا أدري.

وكم والله سمعنا سماحة الوالد الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى يقول: لا أعلم، المسألة تحتاج إلى بحث....تحتاج إلى تأمل أمهلونا، أنظرونا.... وهذا هو الخلق وهذا هو الدين.

الوقفة الثامنة عشرة: السمع والطاعة لولاة الأمور.

وهو من الأمور الكبيرة في المنهج مما حصل منه خلاف ولبس في الحركات الإصلاحية، وما حدث لها من النكبات إلا لإخلالها بأمور منها هذا المنهج، وهو السمع والطاعة لولاة الأمور.

جاءت الآيات الكريمة والأخبار النبوية الصحيحة الكثيرة بتأكيد هذا المنهج ونص أهل المعتقد السلفي في كتبهم، العقدية السلفية على ترسيخ هذا المبدأ؛ بل أفردت فيه مصنفات مستقلة، وإنَّ مما يؤسف له أنَّ كثيرً ا من قادة الحركات الإصلاحية ومن أتباعها إذا كتبوا في هذا المْبحث تلحظ في كتاباتهم أمرين اثنين:

الأمر الأول: يُورِدُونَ أخبارًا في باب إنكار ((المنكر)) يتشبثون بها، وهي أخبار لا تمثل شيئًا بالنسبة لكثرة النصوص الواردة في ترسيخ هذا الأمر، ويتمسكون أيضًا ببعض الآثار عن العز بن عبد السلام، أو عن بعض أهل العلم في قضية أو قضيتين، ويجعلون تلك القضية قاعدة يقاس عليها ما سواها.

الأمر الثاني: إن تكلموا في هذا المبحث تكلموا من طرف خفي، وعلى استحياء ولم يعلموا، أو تجاهلوا أن هذا من أصول الشريعة، ولا يخلو كتاب في المعتقد إلا بالنص عليه، ناهيك عن كثرة الآثار المنكـرة مـن السلف الصالح فيمن أخل بهذا الأمر، والناس في هذا الأمر على أقسام ثلاثة:

قسم جعل ولاة الأمر معصومين لا يصدر منهم منكر، يُنكر حتى نصحهم، ويجعل ذلك من الافتتـان عليهم، ويبرر كل أقوالهم، وأفعالهم، وهذا لا شك من عدم النَّصيحة لهم.

وقسم آخر: يتشوف ويتصدَّر ويتتبع أخطاءهم ويشهرها بين الملأ، وكأنه ظفر بصيد ثمين، وبغنيمة لا تقدر بثمن، ويجعل ديدنه سواء أكان مكتوبًا أو مسموعًا أو مرئيًا التشهير بأخطائهم والمنهجان غلطان.

والمنهج الصحيح: ما قرره سلف الأمة أن لهم الطاعة في طاعة الله، فإن خـالفوا فـإنَّ نـصحهم لـيس كنصح الناس الآخرين ؛لأن منزلتهم تختلف، وليس هذا من المداهنة؛ بـل هـذا مـن الحكمـة، وانظـر إلى وصية الرسول ﷺ لأصحابه ن ((**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَـةٌ**)) [1]. بعض الناس قد يأنف؛ ولكن يجب وجوبًا أن تطيع لأمره إذا تولى الأمر.

وقول النبي ﷺ : ((**سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا**)) [2] . بـل في سـنن النـسائي ((بـاب: البيعـة عـلى الأثر)) [3] استئثار بالأموال ولهذا أشغل كثير من أهل الإصلاح وقتهم بأمر الدنيا، بأمر الأموال يـتكلم في الثروات والمال، ولم يهتد بهدي النبي ﷺ.في قولـه: ((فَاصْـبِرُوا)) إن كـان ولا بـدَّ فهنـاك طـرق للنـصح بالقول.

ولهذا تلاحظ في بعض القيادات السابقة والمعاصرة كل الكلام عن الثروة، لا يقال: يسكت عن هـذا حاشا وكَلَّا؛ لكن تسلك الطرق المشروعة، فينبغي أن نعطي هذا الأمر حقه، وأن لا نفرط في الحديث عنه، وأن نعرف أن الأمر عقدي من أصول العقيدة.

وأمَّا الاحتجاج ببعض الآثار، فيقال: هذه آثار إذا خرجت عن القاعدة، فلا تكون قاعدة؛ بل يقـال: أصل سلوك المنهج الذي سلكه السلف الصالح، هو النُّصح

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن في معصية برقم ٧١٤٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في كتاب البيعة الباب الخامس فيه (٥)

بستر أمَّا التشهير فلا.

ولهذا قال السخاوي في كتابه: ((الإعلام بالتوبيخ على من ذم التاريخ)): ترك بعض ما يتعلق بالسلاطين فعابه قوم، فقالوا: ما ذكر المنكرات التي عندهم، قال: هذه إمَّا أن تكون حقًا، وإمَّا أن تكون باطلًا، فإن كانت حقًا فذكرها من إشاعة الفاحشة، وإن كانت باطلًا، فهي من الغيبة والنميمة.

ولهذا نرى أن أنس بن مالك ﷺ وهو من أفضل الصحابة ﷺ والحجاج قد تسلط عليهم يتمثل، بقوله عليه الصلاة والسلام: ((**سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً**)).

وقل مثل هذا في الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ــ / ــ في وقته يُجلد ويعذب والاعتزال كشر عن أنيابه، وقد أغوى الخليفة وأقام القول بخلق القرآن، ومع هذا كما قال شيخ الإسلام: ((كان يدعو للمأمون ويصلي خلفه))

ولو أراد البلبلة والفتنة و أشار بيده هكذا لمشى الناس معه؛ ولكن عنده نصوص حكمته وأدبته، ومنعته ديانته وورعه أن يتخوض في الأمر بلا علم، بل كان مع النص حيث كان.

وأمَّا الاحتجاج بالعز بن عبد السلام الذي جعله كثيرٌ ممن كتب في هذه الأمر هو القاعدة، ولهذا تلاحظ مع شديد الأسف في كثير من كتب الحسبة والاحتساب إذا أوردوا الإنكار أوردوا الإنكار على السلاطين بهذا الأثر، وكأنه آية محكمة، يقال: لو كان العز من أئمة أهل السنَّة والجماعة لما كان فعله حجة؛ لأن الأصل على خلافه، فكيف والعز بن عبد السلام لا يُعدُّ من أئمة أهل السنَّة والجماعة، يُعدُّ من الأشاعرة الكُلَّابِية؛ بل ذمه شيخ الإسلام لمدحه الأشاعرة، وذمه أهل السنَّة وتبجيله بعض أئمة الصوفية حتى ذكروا أنه كان يرقص معهم حتى تسقط عمامته، وذكروا أشياء كثيرة، هذا لو تُنزِّل بأنه من أئمة السنَّة المتبوعين لقيل هذا القول خلاف ما جرى عليه العمل، فكيف يُعدُّ من أئمة أهل السنَّة، وإنما يعد إمامًا من أئمة الشافعية في الفروع، وله قوة أسلوبه وكتبه نافعة؛ ولكن له شطحات عقدية كبيرة بينها أهل العلم، وأنكر عليه شيخ الإسلام وغيره.

فمن الملاحظ في الكلام على هذا الأمر، وهذا مرض في بعض شباب الصحوة إذا سمعوا خطيبًا أو واعظًا أو متكلمًا أو مفتيًا يحث على احترام حق ولاة الأمور جاءته السهام بالتهمة والطعن في الديانة، واتهام النيات، نسأل الله السلامة.

ولو كان سهمًا واحدًا لا اتقيته ❊❊❊ ولكنه سهم وثانٍ وثالث.

وكل مسؤول عما يقول: فشاهد القول: هؤلاء الحكام ليسوا معصومين؛ بل يُناصحون ويُدعى لهم بالهداية والتوفيق .

وما أجمل ما قاله البربهاري ــ / ــ : ((إذا رأيت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله، وإذا رأيته يدعو على السلطان فاعلم أنه صاحب هوىً)) (1) والعجب والتناقض؛ بل قد يكون من النفاق أن ترى الرجل يسب، ويشتم، وإذا جاءته الحاجة مد يده ودعا وأثنى، فإذا احتاج ولم يعط ذم وقدح وجدع وسب. وهذا لاشك مما لا يليق بالمسلم العادي، فكيف بمن كان قدوة في شأنه، وهذا الأمر مما تلوثت به كثير من الأقلام في الحركات الإصلاحية نسأل الله السلامة من ذلك.

وقد غلط فيه الكثير ولو أنهم رأوا منهج السلف بتجرد، ولم تحكم بعضهم عواطف أو محاكاة لأحد لصلح أمرهم في هذا الشأن.

ولهذا ذكر العلماء أن غيبة ولاة الأمور أعظم إثمًا من غيرهم، كما أن غيبة العلماء أعظم من غيرهم ؛لأن إثمها يتعدى؛ بل حكى بعضهم تعزير من اغتابهم سواء العلماء أو الأمراء، وشدد في شأن الأمراء ؛لأنهم أن تسلطوا، فشرهم على أنفسهم وعلى المسلمين، نسأل الله أن يريناالحق حقًّا ويرزقنا اتباعه.

الوقفة التاسعة عشرة: الوقاية من اليأس والتشاؤم

اليأس ذمه ربنا في غير آية، قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧] وقوله تعالى: ﴿ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٣] والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: ((**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**)) (2) وردت الرواية بفتح الكاف، **فَهُوَ** أَهْلَكَهُمْ: أي: أنه قنطهم وجاءت الرواية الأخرى بالضم (أهلكُهُم) أي: أشدهم هلاكًا؛لأنه زكى نفسه وقدح في غيره.

والصحابة ن في الأوقات العصبية في الفتن كوقت الحجاج بن يوسف الثقفي /

---

(١) انظر/ شرح السنة له [١/ ٢٠]

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول هلك الناس برقم ٢٦٢٣.

وأوقات ظهور الخوارج، والرفض كانوا ينشرون السنَّة وكان الرفض والظلم ظاهرًا، مع هذا كله لم يثنهم ذلك عن دعوة الناس إلى الخير.

ترى بعض الناس يُقنط الآخرين من إخونه وأقرانه من المجتمع فيبدأ بالتثبيط والقدح فيقول: المجتمع فيه منكرات، المجتمع فيه كذا، وكذا، وداعي الخير يجتهد في طلب العلم عمره كله من المحبرة إلى المقبرة، ولا يقف ولا يتريث ؛ بل يحاول أن يكون من حسن إلى أحسن.

ولهذا ترى أنَّ الناس في هذا الأمر أيضًا على ثلاثة أقسام:

قسم مُتَشَائِم قانط: إذا جلست معه تراه يجر أذيال الخيبة والقنوط .. يقول: الناس قد جاهروا بالمنكرات والفواحش، ورفع رايات سوقها أهل الشر وهم قد كثروا فيتقاعس ويثبط غيره، فيكون شرًا على نفسه وعلى غيره.

وقسم آخر: مُتَوَاكِلٌ يسوف العمل ويكله إلى غيره، هناك من يعمل، وهناك من يقوم، وهو جالس في الظل.

والقسم الثالث: خير الأقسام من يشحذُ هِمَّته، وَهِمَّة غيره، ذكر الإمام ابن الجوزي ــ / ــ: في مناقب الإمام أحمد ــ / ــ ((أنَّ رجلًا قال للإمام أحمد: يا أبا عبد الله ظهر الباطل علينا، قال: لا، بما أن قلوبنا على الحق، فالحق ظاهر)). [1]

فينبغي لطالب العلم أن يستحضر منهج الصحابة والسلف، وأن يكون عاملًا حتى آخر رمق في حياته.

ومن أسباب القنوط والتقنيط: قلة الأتباع، أو قلة الحاضرين، وليست الكثرة دليلًا على إصابة الحق وموافقته، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]، وأهل النار أكثر من أهل الجنة أضعافًا مضاعفة، والتابع للأنبياء قليلٌ، . قال ﷺ: ((**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ**

---

(١) انظر/ معالم في طريق طالب العلم للمؤلف

الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ)) [1].يأتي النبي المؤيد بالوحي السماوي تصديقًا ودعمًا له لدعوته، وليس معه أحد.

ولهذا قال الألوسي: ((ما ضَرَّ النبي قلة أتباعه، ولا العالم قلة تلاميذه، فإياك واليأس)). فو الله؛ لأن نعنى بشاب واحد، وتربيته على العلم الشرعي، والمنهج السليم فيحدث الله تعالى بذلك الشاب صحوة، أو توجيهًا علميًّا ينفع الله به مُعلمه، وينفع به المجتمع، وكم من شاب أُعتني به، أو شباب اعتنى أشياخهم بهم، فنفع الله تعالى بتلاميذهم، ولا تزال أجور تجري على مشايخهم في قبورهم إلى قيام الساعة.

الوقفة العشرون: سلامة القلب من الأمراض.

إنَّ ممَّا أُثر عن الصحابة ن سلامة القلب على بعضهم، ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب ((الصمت)) أن كلامًا جرى بين سعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد ب فجاء رجل إلى سعد وقدح في خالد، فقال سعد: مه ؟! أي: اصمت، وكف عن هذا، فإنَّ ما بيننا لم يبلغ ديننا.[2]

وأبو دُجانة دخل عليه رجل في مرض موته، ووجهه يتهلل، فقال، ما شأنك، قال: ليس في قلبي غِلٌّ على أحد من المسلمين.[3]

لا ينفي هذا أن نبغض في الله أبدًا، فالبغض في الله تعالى له شأنه؛ لكن المصيبة أن ترى أحد أهل الخير يتَّقد قلبه حقدًا على أخيه إذا خالف في مسألة، وكان له مسوغ فيها إذْ قد يكون الخلاف فيها من باب خلاف التنوع؛ لكن تجد أن هناك الجفاء، والغلظة، والفرح بالقدح فيه، والتفرح إذا سمع من يشتمه وينتقده، ومثل هذا في الغالب يكون سببًا في نزع البركة في العلم والبركة في الفهم، وبوادر التوفيق الإلهي قد تقل عقوبة له، وهذا والله مما عطل مسيرة الصحوة، أن ترى الأخوين الشقيقين من رحم واحد يختلفان في مسألة من خلاف التنوع، فيصر كل منهم على رأيه، ويتعصب هذا لزيد وهذا لعمرو.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه البخاري في صحيحه في عدة مواضع منها: في كتاب الطب، باب من لم برق برقم ٥٧٥٢، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنَّة بغير حساب ولا عذاب برقم ٢٢٠.

(٢) انظر: كتاب الصمت وحفظ اللسان ص ١٣٧، رقم ٢٤٦، وكتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ١٠٥.

(٣) انظر/ سير أعلام النبلاء [١/٢٤٣]، وكتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ١٥٩، ١٦٠

نعم إذا كان الاختلاف اختلاف تضاد فلو سخط من سخط لا يؤبه له وإنَّما، يدعى له بالهداية؛ لكن المصيبة إذا كان خلاف تنوع ومع ذلك تجد الجفاء بالنظر، وعدم إلقاء السلام وعدم الترحاب والابتهاج بمجرد أنك خطأت من يحب، أو لم توافقه على رأي له؟ فأين الفقه ؟ و أين البصيرة ؟.

هذا لا شك من الجهل وهو يخالف منهج الصحابة ن؛ بل بلغت سلامة القلب

ومعرفة حقِّ الأخوة بين الصحابة أن يسال الكبير الصغير، وأن يستفيد الكبير من الصغير، وأن يتأدب الصغير، ويعرفحقَّ الكبير.

فهذا عمر في أوج خلافته يسأل عليًّا عن بعض ما أشكل عليه؟ وما أكثر ما سأل عمر عليًّا رضي الله عنهما، ففي كتاب ((الروح)) ذكر ابن القيم أنَّ عمر ﵁ قال: ((يا أبا الحسن أسئلة ثلاثة وددت أني سألت عنها نبي الله ﷺ : فقال: هاتها، فسأله. فأجاب)) [1] . بل كان عمر ﵁ على جلالة قدره في مجلس خلافته يُدْنِي ابن عباس ب وهو في سن أصغر أبنائه، وما استنكف ولا ترفع عن ذلك.

وأيضًا درج على هذا سلف الأمة، فالفراء مثلًا ـ/ ـ من رؤوس أهل العلم في اللغة، وكذلك الكسائي ـ / ـ إلا أن الفراء أكبر سنًا، وأكثر علمًا، ومع هذا كان يُعَظِّم الكسائي ويظهر تبجيله أمام الناس، ويذكر فضائله وشمائله. [2]

فسلامة القلب درج عليها الصحابة تمشيًا مع النصوص كقوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر:٩] قمة الإيثار، وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠].

فكيف ينشد طالب العلم التوفيق في الأمور، وهو يضمر الشحناء والضغينة على إخوانه،نسأل الله سلامة الصدر، وطهارته من الغل والحقد والحسد.

---

(١) انظر/ كتاب الروح [١/٢٣٥]، وكتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ١٠٤.

(٢) انظر/ كتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ١٠٦.

وهكذا كان أهل السنَّة، يرون خلاف التنوع دائرته واسعة؛ لكن قلوبهم سليمة قد يختلفون في مسائل وتبقى القلوب صافية، فكيف يقال في بعض النَّاس الذي لو تخالفه في جزئية واحدة جعل العمل معك فيصلًا ولاءً، وبراءً.

أذكر أنَّ الشيخ الألباني والشيخ حمود التو يجري عليهما رحمة الله كان بينهما ردود في مسائل كثيرة مبسوطة منثورة في كتبهما، وعند ما قدم الشيخ الألباني إلى الرياض [١٤١٠هـ] زار الشيخ حمودًا واستضافه الشيخ مع بعض الناس، وكان الشيخ حمود قد دعاهم، وكنت مدعوًا لحضور المجلس؛ ولكن لم أتمكن من الحضور، وأخبرني من حضر أنه رأى التبجيل والتقدير والمحبة بين الشيخين لم ..؟ ؛لأنهما على منهج واحد، فهما عالمان من علماء السنَّة والخلاف بينهما قد يكون من باب التنوع، وقد يكون هذا يرى أن هذا على خطأ، وأن المسألة لا تتسع ؛لكن لأنه عالم وعلى قدر كبير من العلم فتبقى المحبة والتقدير والتوقير[1].

فكيف يقال: فيمن نقم وشهَّر وشمَّت بكبار العلماء إذا خالف رأيه ؟ فكيف إذن بأقرانه، فينبغي ملاحظة هذا الأمر في أنفسنا، وفي إخواننا والله الهادي والموفق لكل خير.

الوقفة الحادية والعشرون: من صفات طالب العلم.

أذكر هنا صفتين من خصوصيات طالب العلم وأخصهما بالذكر لأهميتهما:

الصفة الأولى: ما يتعلق ببر الوالدين كان الصحابة ن أبر الناس بأمهاتهم وآبائهم والآيات في هذا كثيرة نهج الصحابة مسلكها منها قوله تعالى على لسان نبيه عيسى عليه السلام : ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٣٦] وقال تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا ﴾ [نوح:٢٨].

وكان أبو هريرة ﷺ مثالًا في البر بأمه، والقصة مشهورة في إسلامها، والنبي ﷺ يقول: ((**إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ، يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ [هُوَ بِهَا بَرٌّ] وَكانَ به بَيَاضٌ فَمُرُوهُ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ**))[2].

---

(١) انظر/ كتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ١١١.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أويس القرني برقم ٢٥٤٢.

وعلى هذا درج السلف الصالح، وتلاحظ أن الصحابة ن تلاميذ النبي ﷺ، والتابعون، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين يتمثلون هذا في جميع حياتهم.

فهذا إياس بن معاوية المشهور لما ماتت أمه بكى فقيل له: لماذا تبكي ؟، قال: ((كان لي بابان مفتوحان إلى الجنة و غلق أحدهما)) [١].

والعجب أن أئمة العلم الكبار كانوا من أبرِّ الناس بوالديهم، فمثلاً الإمام أبو حنيفة النعمان / قال الحسن بن زياد: ((حلفت أمَّ أبي حنيفة بيمين فحنثت،فاستفتت أبا حنيفة فأفتاها فلم ترض، وقالت: لا أرضى إلا بما يقول أبا زرعة القاص ــ هو إمام المسجد الذي يصلي فيه أبو حنيفة ــ فجاء بها أبو حنيفة إلى زرعة. فقال لأم أبي حنيفة أفتيك ومعك فقيه الكوفة!! فقال أبو حنيفة: أفتيها بكذا وكذا، فأفتاها فرضيت. وسألته مرةً، فأفتاها أبو حنيفة فقالت: أنت لا تعلم ثم طلبت منه الذهاب بها إلى عمر بن ذر، قال الراوي: رأيت أبا حنيفة يحمل أمه على حمار إلى مجلس عمر بن ذر كراهية أن يرد على الأم أمرها، وفي بعض الروايات: أن عمر بن ذر سأل أبا حنيفة عن جواب مسألة أمه فلما أخبره، قام عمر بن ذر فأجابها بجواب أبي حنيفة دون أن ينسبه له فرضيت)) [٢] .

وبكل حال فهذا من أعظم البر والتقدير، تخيل أن يأتيك أحد كبار العلماء مع أمه ويسألك بحضورها كيف يكون الشأن .. ؟ !.

وهذا حيوة بن شريح في مجلس العلم من أئمة المسلمين .. أئمة أهل السنَّة والجماعة تأتي أمه العجوز من داخل البيت، تدخل على الناس، امرأة كبيرة تريد أن تقضي مرادها، فتقول: قم ياحيوة أعط الدجاج الحب، فيستأذن من الطلاب، ويدخل إلى الدار ويعطي الدجاج الحب، ثم يعود ليكمل درسه، ويتقرب بهذا إلى ربه.[٣]

وابن عساكر ــ / ــ الذهبي كر تأخر في المجيء إلى أصبهان، وقد سئل عن ذلك كثيرًا، فقال: لم تأذن لي أمي .[٤]

---

(١) انظر/ بر الوالدين لابن الجوزي ص ٤٨، وكتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم٢٣٣ .

(٢) انظر/ كتاب مناقب أبي حنيفة للإمام الموفق ابن أحمد المكي ص ٢٥٤، ٢٥٥.

(٣) انظر/ كتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ٢٣٤.

(٤) انظر/ تذكرة الحفاظ (١٣٣٣/١٠).

والذهبي / كان يذكر بعض الأئمة في القراءات، ويقول كنت أتحسَّر على عدم الرواية عنه، ولا أتجسَّر تقديرًا لأبي، ثم لما أردت الرحلة مكثت أربعة أشهر ورجعت، ولم أكمل إجازتي ؛لأني وعدت أبي بأني لا أقيم في الرحلة أكثر من أربعة أشهر، فخشيت أن أعق والدي.[1]

هذه المُثل العُليا نحن بحاجة لها، وطالب العلم أولى النَّاس بها، فمنهج الصحابة نصح الوالدين في التقصير، وهو منهج الأنبياء عليهم السلام، وما أجمل ما قال بعض المفسرين بأن الصحابة سلكوا هذا المسلك، أي: مسلك الأنبياء مع أبائهم.

هذا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يقول: ((**يَا أَبَتِ**)) يتلطف إليه أربع مرات ... بأرق أنواع النداء للأبوة في دعوة والده إلى الملة الحنيفية، فمما يستدرك

وينتقم على بعض طلاب العلم إهمال هذا الأمر العظيم برُّ الوالدين.

الصفة الثانية: وهي أيضًا من منهج الصحابة ن. التي سيأتي الحديث عنها في الوقفة التالية، وهي بالاهتمام بالأهل .

الوقفة الثانية والعشرون: العناية بتعليم أهل بيت الداعية أولًا.

بعض الناس كالسراج يضيء للناس يحرق نفسه، وإن كان هذا المثل عليه بعض النقد أو المأخذ؛ لكن يستشهد، فتجد أن بعض الناس يفيد الآخرين، ويحرم أهله، ويقول بعضهم إنه يشعر بحاجز بينه، وبين إخوانه صحيح قد يكون هذا ؛لكن هذا الحاجز يزول بعد توفيق الله تعالى بتعويد الإنسان نفسه على بذل النصيحة.

ولهذا عُني الصحابة ن بهذا الأمر لعناية النبي ﷺ بأهل بيته، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: ((**خَيْرُكُمْ، خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**)).[2] ليس العناية بتوفير الطعام والشراب فهذه تبع، وإنَّما العناية بالتربية العلميَّة.

---

(١) معرفة القراء الكبار ص ٥٥١، ٥٥٦، ٥٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها في أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ ، باب فضل أزواج النبي ﷺ برقم ٣٨٩٥، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وأورده ابن حبان في صحيحه برقم ٤١٧٧.

فهذا النبي ﷺ يأتي الحسن بن علي ب فيأخذ تمرة من تمر الصدقات، فيمضغها، فيدخل النبـي ﷺ يـده في فِيِّ الحسن رضي الله عنه، فيخرجها ويقول: ((كَخٍ ، كَخٍ ارْمِ بِهَا [لِيَطْرَحَهَا] أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ)) (1)

وابن عباس ب يأتي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليبيت في بيت خالته ميمونة أم المؤمنين ك فيقـوم النبي ﷺ بالليل ليتهجد، فيقوم ابن عباس ب ليصلي مع النبي ﷺ صلاة الليـــل، فيـــصف عـن شـمال النـبي عليـه الصلاة والسلام، فيأخذ النبي عليه الصلاة والسلام بأذنه فيدنيه من خلفه عن يمينه.(2)

وهذه فاطمة ك تسأل النبي عليه الصلاة والسلام خادمًا، فيأتي النبي ﷺ فاطمة وعليًّا رضي الله عـنهما في بيتهما، ويقول لهما: ((أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضْجَعَكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمِدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ)). (3)

وعمر بن أبي سلمة شاب صغير يأتي إلى النبي عليـه الـصلاة والـسلام فتطـيش يـده في الـصَّحْفَـةِ، فيقول: ((يَا غُلَامُ! سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ)) (4)

وعمر ليس من آل البيت؛ ولكن عناية النبي عليه الـصلاة والـسلام بالـصغار وبخاصـة مـن ذريتـه، ويدخل تبعًا فيهم من نصحه لأمته.

وأبو هريرة رضي الله عنه يقسم الليل أثلاثًا يقوم هو ثلث، وتقـوم امرأتـه، الثلـث الآخـر، ويقـوم خـادمهم أو مولاتهم الثلث الأخير، وعلى هذا درج الصحابة ن في بيوتهم (5).

---

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه البخاري في عدة مواضع في صحيحه منها في كتاب الزكاة، باب ما يذكر للصدقة للنبي ﷺ وآله برقم ١٤٩١، ومسلم في كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله، وهم بنو هاشم وبنو المطلب وغيرهم برقم ١٠٦٩.

(2) قصة صلاة ابن عباس رضي الله عنهما مع النبي ﷺ في صلاة الليل متفق عليها أخرجها البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل برقم ٦٣١٦، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم ٧٦٣.

(3) قصة طلب فاطمة خادمًا وإرشاد النبي ﷺ لها ولعلي رضي الله عنهما متفق عليها أخرجها البخاري في كتاب فرض الخمس، باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ والمساكين برقم ٣١١٣، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم برقم ٢٧٢٧.

(4) متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين برقم ٥٣٧٦، ومسلم في كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما برقم ٢٠٢٢.

(5) انظر/ سير أعلام النبلاء للذهبي [٢/٦٠٩] وكتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ص ١٣٥.

لهذا ذكر الحاكم عند قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦] عن علي رضي الله عنه أنه قال: ((علموا أنفسكم وأهليكم الخير)).[1]

وبوب البيهقي في السنن الكبرى له بابًا ((باب: ما على الآباء والأمهات من تعليم الأبناء أمر الطهارة والصلاة، وساق حديث: ((**مُرُوهُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَفَرِقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**)) .[2]

والخطيب البغدادي ـ/ ـ يذكر في كتابه ((الفقيه والمتفقه)) ((باب ما على الرجال والأمهات من تعليم الأبناء أحكام الشريعة)).

والنخعي / كما ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد، يقول: كانوا يضربوننا على الشهادة، والعهد ونحن صغار. فتعليم الصغار عني به الصحابة اقتداء بنبيهم عليه الصلاة والسلام .[3]

وابن عباس ب يضع وضوءًا للنبي عليه الصلاة والسلام، فيقول عليه الصلاة والسلام : ((من وضع هذا ؟)) قالوا: ابن عباس ب، قال: ((**اللَّهُمَّ فَقِهْهُ فِي الدِّينِ**))[4] وفي رواية زاد: ((**وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**)) وهذا من تمام العناية بالتربية أن يدعى للصغير بالعلم والصلاح والهداية والتوفيق، فوفق ابن عباس ب إلى تلك الدعوة النبوية، فكان من أحبار الأمة وعلمائها.

وفي كتاب ((العيال)) لابن أبي الدنيا يقول سعيد بن العاص رضي الله عنه : ((إذا علمت ولدي وحججته وزوجته، فقد قضيت حقه عليَّ، وبقي حقي عليه. [5]

وفي مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي أنَّ أبو بكر المروزي قال: دخلت على أبي عبد الله بيت الإمام أحمد: فإذا بماشطة تمشط شعر ابنة للإمام أحمد، والبنت الصغيرة تمانع وتعارض بشدة؟. فقالت للماشطة:

---

(١) أخرجه الحاكم في كتاب التفسير برقم ٣٨٢٦. وصححه ووافقه الذهبي (٢/٤٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، في كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة برقم ٤٩٥، وأورده الحاكم في المستدرك في كتاب الصلاة برقم ٧٠٨ (١/١٩٧). كما ذكره البيهقي في ثلاثة مواضع برقم ٣٠٥٠، ٣٠٥١، ٤٨٧١، (٢/٢٢٨، ٢٢٩، ٣/٨٤).

(٣) انظر/ تيسير العزيز الحميد ص ٧١٦، وكتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ص ١٣٥.

(٤) متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الوضوء برقم ١٤٣، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما برقم ٢٤٧٧.

(٥) انظر / كتاب العيال لا بن أبي الدنيا [١/٣٣١]، وكتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ص ١٣٦.

ما شأنها ؟ قالت: سلها؟، فقال لها: يا بنية، ما شأنك؟ يعني: لماذا تعارضين هذه المشاطة، أن تمشط شعرك وتكمل عملها ؟ قالت: يا عم إنها تريد أن تمشطني مشطة سمعت أبي، يقول نهي عنها رسول الله ﷺ. (1)

فهذه نماذج قليلة من عناية العالم بأهل بيته ومن تحت يده.

فائدة: من أسباب صلاح الصغار إحياء السنَّة أمامهم القولية والفعلية من صلاة النافلة أمامهم، وتطبيق السنن وتعويدهم على ذلك.

وهنا أقول: يلاحظ في بعض المجلات المتعلقة بالأطفال تعنى بالجانب الترفيهي ويغلب عليها الجانب الترفيهي نعم، قد يقول قائل: الصغار بحاجة إلى ترفيه، نعم . لا نزاع في ذلك؛ لكن أن يغلب هذا الجانب ويطغى على غيره، هذا ما لا ينبغي.

وفي بعضها تلحظ أن بعض القصص تُنْتقى لتخدم توجهًا معينًا كالثورة على المجتمع أو لغرس بعض الأمور الفاسدة في نفوس الصغار يحمل الكاتب حسن نية مصحوبة بجهل، فينبغي قبل أن نعطي أبناءنا هذه المجلات أن نقرأها وأن نعرفها.

ويخطئُ بعض الآباء والأمهات في تربية أبنائهم على أشياء وهمية يخيفونهم بها، يخيلونها لهم، وتستقر في أذهانهم، وإذا أخطأ الطفل يخوفونه بها، وبعضهم يخوفونه بالطبيب كطبيب الأسنان، وبعضهم يخوفونه بالضرب، وهكذا.

فلو أنهم غرسوا و زرعوا فيهم الوازع الشرعي القلبي من مخافة الله جلَّ وعلَّا، وأن هذا لا يرضي الله تعالى، وأن مما يوجب سخط الله تعالى، وأن هذا من عدم التوفيق الإلهي.

وفي المقابل إذا أحسن شجعه ودعا له، ورغبه وبشره، وأخبره أن هذا من طريق الجنَّة لكان ذلك أصلح، وعلينا أن نُعنى بتلك القصص أو الأشرطة التي نعطيها صغارنا لأنها تبنى شخصيتهم، وهم عجينة يكيفون على حسب ما يقرأ ون، وما يسمعون، وما يرون ويشاهدون، وقد أعجبني بحث قرأته منذ بضع سنين في مجلة ((عالم الكتب)) يقول الباحث:

---

(1) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٤٠٧ ، وكتاب المؤلف معالم في طريق طلب العلم ص ١٣٤.

((مما اشتهر عند كثير من الآباء روايات لمن يُسمى بجحا هذا، ويقول: ولقد تتبعت أخباره فوجدتها مبنية على الكذب، وعلى الخداع، والاحتيال بالباطل فكيف تربي أبنائنا على مثل هذا وأمثاله.

فشاهد القول وختامه: أنَّ الصحابة ن كانوا أحرص الناس على تربية أبنائهم، وإصلاح بيوتهم، وفق الأدلة الشرعية، وفق الله الجميع لما فيه صلاح الذرية فِي دينهم ودنياهم إنه سميع قريب مجيب.

الوقفة الثالثة والعشرون: التعامل مع أصناف الناس.

وهذه أصناف ينبغي أن يُعنى بالكلام فيها، وبخاصة أن الآيات والأحاديث الواردة فيها واضحة وجليَّة، ألا وهي التعامل مع الكُفَّار: وقد تقدَّم شيء من منهج الصحابة ن في التعامل مع الحكام بالسمع والطاعة، فتذكر هذه المسألة لأهميتها.

وقبل البدء فيها، يقال: إن أي قناعة راسخة في الذهن ينبغي لصاحبها أن لا يعتمد عليها إلا إذا كانت مبنية على دليل شرعي، وعلى كلام موثق من أهل العلم.

وأمَّا مجرد القناعة: فلو غضب لأجلها وانتصر لها، ولم تكن على دليل شرعي فعساه أن يسلم من الإثم، ناهيك أن يؤجر؛ لأن التقرب لا يكون إلا بدليل.

يقال بادئ ذي بدء: لا محبة لمن كفر، ولا ودَّ لمن كفر، ولا سلام على من كفر، وفي الوقت نفسه، يقال: لا ظلم لمن كفر، ولا نكث عهد، ولا نقض ميثاق لمن كفر، وهذا لا يتناقض مع ما سبق تقريره؛ فهو موافق له؛ بل هو من لوازمه، وبيان ذلك أن يقال: إن الشريعة جاءت بمعتقد الولاء والبراء، وهو أصل الدين وقاعدته: إلا أن ذلك الولاء والبراء يتفق مع قول الله جلَّ وعلَّا: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ ﴾ [الأنعام:١٥٢] ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٨] وقسم العلماء الكُفَّار إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: المُعَاهدُ: وهو من بين دولته ودولة الإسلام عهدٌ على وضع الحرب.

القسم الثاني: الذِّمِّيُّ: وهو من استوطن بلاد الإسلام.

القسم الثالث: المُسْتَأْمَنُ: اسم فاعل، وقال بعضهم هو اسم مفعول، وهو من دخل بإذن الإمام أو بإذن نائبه أو بإذن أحد من المسلمين، وأمن على دمه وعرضه وماله، هؤلاء لهم وضعهم المذكور.

القسم الرابع: الحربي: وهو الذي يُباح دمه، وماله، وهذه التقسيمات جاءت بناء على النصوص والآثار، ولهذا قال النبي ﷺ: ((**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**)) .[1]

وفي سنن أبي داود قال ﷺ: ((**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**))[2] إذا عُلِمَ هذا فليعلم العبد أن التعاون مع أنواع الكُفَّار ينبغي أن يكون منضبطًا بحسب النصوص والقواعد الشرعية، وبحسب ما قرره أهل العلم، وبما أننا بُلينا في بلدنا، وفي جميع بلاد الإسلام بمجيء هؤلاء، دخلوا معاهدين ومستأمنين، فلننظر ماذا فعل النبي ﷺ مع أولئك؟.

زار النبي ﷺ يهوديًا مرض، مع شرف وقته ﷺ، وذلك اليهودي لا يمثل شيئًا في المجتمع لا مجتمع اليهود، ولا في مجتمع المسلمين، فليس ذا حسب، وليس ذا جاه، وليس ذا منصب، وإنما زاره النبي ﷺ بقصد دعوته إلى الإسلام.

لما زاره قعد عند رأسه، فقال له: ((**أَسْلِمْ**)) فنظر إلى أَبيه وهو عنده، فقال له: ((**أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ** ﷺ))، فأَسْلَمَ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: ((**الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**)).[3] هكذا نطق الغلام بالشهادتين ففاز برضا الرحمن.

وذكرتْ كُتب أحكام أهل الذمة وغيرها أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلًا ضريرًا كبير السن يسأل الناس، فأخذ بعضده، وقال: من أنت ؟ قال: يهودي. قال: ما حملك على ما صنعت ؟، قال: الفقر والحاجة، والسن والمرض، فقال عمر: أخذنا ماله في شبابه، فلا يكون عالة في شيبته، ثم أمر له بشيء من بيت المال.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم برقم ٣١٦٦، كما كرره في كتاب الديات، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم برقم ٦٩١٤.

(٢) أخرجه في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات برقم ٣٠٥٢.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه برقم ١٣٥٦ كما كرره في كتاب المرضى، باب عيادة المريض برقم ٥٦٥٧.

وعبد الله بن عمرو بن العاص ب كان يوصي غلامه دائمًا بأن يتعاهد جاره حتى كان يُرسل لـه مـن أضحيته، فأخبر ه غلامه بأن جاره كافرٌ، فقال: قال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ: ((**مَازَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**)) [1]. وقد ذكر بعض أهل العلم أن الجيران ينقسمون إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: جار له حق واحد، وهو الجار الكافر، له حق الجوار.

القسم الثاني: جار له حقان، وهو الجار المسلم، له حق الجار، وحق الإسلام.

القسم الثالث: جار له ثلاثة حقوق، وهو من كان بينك وبينه قرابة في النسب أو المصاهر ة أو الرضاعة، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق القرابة.

شاهد المقال: أن هؤلاء الكفرة يختلفون باختلاف وضعهم، فإذا دخلوا بلد الإسـلام بـإذن الإمـام، أو نائبه، وقال بعض العلماء حتى لو أمنه واحد من آحاد المسلمين، فيعتـبر مـستأمنًا، ويحتجـون بحـديث أم هانئ ك، قالت: يا رسول الله إن ابن أخيك ـــ تعني عليًا ﭬ قد توعد فلانًا، وإني قد أجرته، قـال: ((**قَـدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ**))[2]

ولا يلزم من ظُلْم حكوماتهم أن يُظلم من دخل في بلاد المسلمين، فالنص الشرعي يحكمنا، ويؤدبنا أن لا نحكم على النص، بل نحتكم إليه مع التسليم والانقياد، ولا عكس، فلا نحكم عليـه، ولا نقـوده وبـما أننا بُلينا في بلادنا، وبلاد المسلمين بهؤلاء، فلم لا نفعل كما الصحابة ن، وكـما فعـل نبـيهم ﷺ باسـتغلال دعوتهم.

قد يقول قائل: ولماذا يدخلون الجزيرة أصلًا، وهم ممنوعون منها شرعًا،ووصية رسول الله أن يخرجوا منها، يقال: هذا أمر قد قدر، وليس لنا طاقة في رده؛ لكن بما أننا بُلينا يه، فلنبذل جهـدنا في دعـوتهم، فـإن الإعلام اليهودي قد رسَّخ في أذهانهم أن الإسلام دين الوحشية والقتل والإرهاب.

فلنثبت بتمسكنا بديننا وتعاملنا معهم عكس ما اتهمنا به، وهؤلاء إذا غيرت هـذه المفـاهيم في أذهـان بعضهم أصبح راية مرفوعة في الاعتراض على حكوماتهم، وكم نقرأ وكم نسمع أن من الأحبار والرهبان

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار برقم ٦٠١٥. ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه برقم ٢٦٢٥. كما أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها في نفس الكتاب والباب برقم ٦٠١٤، ومسلم برقم ٢٦٢٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤٢٥/٦، ٤٢٣، والطبراني في المعجم (٤٣١/٢٤) برقم ١٠٥٦،

من اليهود والنصارى من يرفع عقيرته، ويسل قلمه في بيان ظلم حكوماتهم للمسلمين بدءًا بقضية فلسطين وحتى العراق الآن.

فلمَ لا يستغل مثل هؤلاء الذين نصروا الإسلام والمسلمين، وقالوا: بأنهم مظلومون، وأن حكوماتهم ظالمة، يستفتى المشايخ الكبار في هؤلاء هل يشكرون، وهل يراسلون ؟ هذا هو المفروض،أن يراسلهم وندعوهم إلى الإسلام.

كذلك يذكر من باب الشكر ما يقوم به العاملون في مكاتب الجاليات من دعوة هؤلاء،حيث أسلم عدد كثير منهم؛ بل إن بعض الجهود الفردية لبعض المحتسبين قد نفع الله جلَّ وعلا بها.

يخبرني أحد المشايخ ممن يتعاون في دعوة هؤلاء أنه في حرب الخليج الثانية، قال كنا في الشرقية، قد وضعنا مكتبًا خاصًّا بالدعوة الإسلامية، فاعترض بعض ضباط الكفرة على هذه اللوحة، فقلنا إذن تُغَيَّر اللوحة، فكأن بعض الغيورين سخط، وقال: لا بد أن تبقى اللوحة، فقلنا يا هذا أليس الغاية إصلاح عقائد هؤلاء ؟ لا تهم اللوحة، فوضعنا المكتب الثقافِي،ثم يقول:

والحمد لله سلكنا معهم مسالك شتى مناظرة، وبيان لدين الإسلام، وإهداء صوتيات وأشرطة، فأسلم جمع كبير، وذهب بعضهم واعتمر في أثناء مدة الحرب، قلت: كم تقدر عددهم؟ قال: من بداية وجودهم إلى نهاية الحرب قرابة ألف ومائتين.

وهناك رجل في الشرقية كان يعمل في شركة أرامكوا، وتعلم لغة القوم فيتكلم بها بطلاقة، وكان عنده غيرة على الإسلام وحرقة على أن يأتي هؤلاء ثم يرجعون وهم على دينهم الباطل، فكان تجول بينهم بسيارته في معسكراتهم، فيعطيهم أشرطة وكتيبات وكان يكلمهم، ويقول أحد النقلة الثقات إن اثنين وخمسين رجلًا أسلموا بفضل الله تعالى، ثم بفضل هذا الرجل.

فقل لي بربك كم يجري عليه من الأجر؟، إن الإنسان إذا لم تنضبط غيرته وبغضه بعلم فقد لا يسلم من الوزر،فضلًا عن تحصيل الأجر، وهذه المبادئُ إذا لم يضبطها طالب العلم بالميزان الشرعي، فإنه لا يضر نفسه فحسب؛ بل يضر غيره ممن سمع كلامه أو قرأ كتابه أو تأثر بتخصصه.

الوقفة الرابعة والعشرون: المسابقة إلى فعل الخيرات بأنواعها.

فأنت عزيزي القارئ تعلم أنَّ أنواع العبادات منها : العبادة المالية، والعبادة القلبية والعبادة البـد نيـة، والعبادة اللسانية، وقد تجتمع بعض أنواع العبادات في طاعة واحدة وقد تفترق، بحسب نوع العبادة.

وكان الصحابة ن من أسرع الناس، ومن أسبقهم إلى فعل الطاعات، ومن أعظم العبادات التـي كـان الصحابة ن حريصين على فعلها نشر العلم؛ لأن نفعه يتعدى، وقد سبق أن ذكرنا خبر مالك بن الحويرث ﷺ وأصحابه عندما قدموا إلى النبي ﷺ ومكثوا عنده مدة من الزمن، وفي بعض الروايات حددت بنحـوٍ من عشرين ليلة، فلما رأى اشتياقهم إلى أهلهم قال: ((**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ وَعَلِّمُوهُمْ**))، وهذا هو ا لأمـر المُهِمُّ.

كما أن معاذ بن جبل ﷺ ذهب إلى اليمن وهو شاب في مقتبل عمره وهاجر من المدينة بإذن النبي ﷺ في سبيل تبليغ العلم، ودعوة الناس إلى الخير.

وقد ذكر الذهبي في كتابه القيم ((معرفة القراء الكبار)) أن أبا الدر داء ﷺ كان إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة، عشرة وعلى كل عشرة عريقًا، ويقف هـو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلـط عـريفهم رجـع إلى أبي الـدرداء يسأله عن لك)). [١].

وهكذا كـان الـصحابة ن ينـشرون العلـم في بيـوتهم ومـساجدهم ومجتمعـاتهم، بـل وحتـى خـارج مجتمعاتهم، ومما يتعلق بذلك حرص الصحابة ن على الجمعة والجماعة، وممـا أعجبنـي كـلام سـمعته مـن بعض أهل العلم، قام بتصفح دواوين السنَّة واستقراء أحوال الصحابة في حضورهم إلى الجمعة والجماعة لم يوجد إلا حالات تُعَدُّ على الأصابع حصلت قسرًا في تأخر بعض الصحابة عن الجماعة، وإلا فالأصـل: أن مجتمعهم من أكمل المجتمعات، ومن أسبقها إلى حضور الجمعة والجماعة، ولهذا قال البراء أو غيره: كنا نتحيَّن الصلاةَ عن يمين النبي عليه الصلاة والسلام،كما كانوا يتسابقون إلى الصف الأول.

وذكروا أن ابن عمر وابن عباس وجابر وغيرهم ن لم يعرف عـنهم أنهـم قـضوا صـلاة مكتوبـة، ولا تنسى حديث عبد الله بن عمرو ب عندما قال: يا رسول الله ائذن لي بصيام الدهر فنهاه النبي ﷺ عن ذلك،

(١) معرفة القراء الكبار ص ٣٨.

فقال: ((**صُمْ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ**)) قال: قلت: إني أطيق أكثر من ذلك، قـال: ((**صُـمْ يَوْمًـا، وَأَفْطِـرْ يَوْمًا**)) قال: إني أطيق أكثر من ذلك، قال : قلت: يا رسول الله إني أطيق أفضل من ذلـك قـال: ((**ذَلِـكَ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ أَفْضَلُ الصِّيَامِ**)).[1]

فهذا الحرص دليل من أدلة كثيرة على أنهم ن، أحرص الناس وأسبق الأمة إلى الخير، وحـديث النفـر الثلاثة الذين أنكر النبي ﷺ فعلهم يدل على حرصهم على الخير لما قـال أحـدهم: ((**أَمَّـا أَنَـا فَأَصُـومُ، وَلَا أُفْطِرُ، وقال الآخر: أَمَّا أَنَا أَقُومُ، وَلَا أَنَامُ، وقال الثالث: أَمَّا أَنَا فَلَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءُ**)).[2]

وقولهم هذا دليل على حرصهم ن ؛ ولكن هذا الحرص لما كان مخالفًا للسنة وكان مـذمومًا فـوجههم رسول الله ﷺ إلى الفعل الصحيح.

ولهذا أثر الصحابة على من بعدهم من التابعين، ومن بعدهم. قال بعـض علـماء الـشافعية، كـانوا في الزمن الأول: يذهبون إلى الجمعة بالسُّرج بعد الفجر طمعًا في إدراك الصف الأول، وإدراك الساعة الأولى على القول بأنها تبدأ بعد انتهاء وقت الفجر.

ونقل عن الصحابة ن، ومن بعدهم، أنهم مشوا على هذا النهج[3] ، فذكروا أن محمد بن سماعة يقول: لم تفتني جماعة في صلاة منذ عقلت الصلاة إلا مرة واحدة كنت مشغولًا بدفن جنازة أمـي)) وقـس عـلى هذا الأمثلة الكثيرة، ولا بد أن يسأل كل منَّا نفسه، هـل هـذا المـنهج يتمثلـه كـل طالـب في نفـسه: فيـك الخصام، وأنت الخصم والحكم.

الوقفة الخامسة والعشرون: تأصيل مبدأ التناصح.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب صوم الدهر برقم ١٩٧٦، ومسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر ... برقم ١١٥٩

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر/ معالم في طريق طلب العلم للمؤلف ص ١٢٣ ـ ١٢٥.

تحقيق مبدأ النصح بصدق وإخلاص: والأدلة في هذا الباب كثيرة، أشهرها حديث أبي رقية تميم الداري رضي الله عنه في صحيح مسلم، قال النبي ﷺ: ((**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**)) [1] .

وهذا الأسلوب هو ما يسميه أهل العلم: ((إطلاق الكُلِّ على الجزء)) لبيان أهمية ذلك الجزء، كقوله عليه الصلاة والسلام ((**الْحَجُّ عَرَفَةُ**)) .[2] والحج يشمل عرفة، ومزدلفة، ومنى، ومكة لطواف الإفاضة والسعي ونحوه ذلك من أعمال الحج ؛ لكنه خَصَّ عرفة بالذكر لأهميتها، وخَصَّ النُّصحَ بالذكر لأهميته.

وأيضًا من أهمية النُّصح أن الصحابة ن كانوا في أثناء بيعتهم يبايعونه ﷺ على ((**النُّصْحُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**))، كما قال جرير رضي الله عنه .[3] وتتأكد النصيحة إذا طلبها أخوك منك، قال عليه الصلاة والسلام ((**وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ**)) [4].

وهنا يجب على من طُلب أنْ يَنصحَ أن يصدق ؛لأنه إن كذب غش نفسه، وغش أخاه، قال عليه الصلاة والسلام: ((**وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ**)). [5]

وكان مبد أ الصحابة ن ((**اجْلِس بِنَا نُؤْمِنُ سَاعَةً**)).[6] ومن أمثلة تناصح الصحابة ن ما يلي:

لما كان عمر يخطب رضي الله عنه دخل عثمان، فقال: عمر ما بال أحدكم يمكث عند أهله حتى إذا أذن جاء... فبين عثمان رضي الله عنه عذر ه في تأخره. [1]

---

(١) أخرجه في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة برقم ٥٥.، وأبو داود في كتاب الأدب، باب في النصيحة برقم٤٩٤٤. وهنا أريد أن أُنَبِهَ أن تكرار لفظ إنَّ الدين النصيحة، إنَّ الدين النصيحة، إنَّ الدين النصيحة، ثلاثًا تعزى إلى مسلم، والصحيح أنها في سنن أبي داود، وليست في مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي وغيره من حديث عبد الرحمن بن يعمر رضي الله عنه في أبواب الحج عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج برقم ٨٨٩، والنسائي في السنن الكبرى برقم (٤٠١١، ٤٠٥٠، ٤١٨٠، وابن ماجه في كتاب المناسك، باب من أتى قبل الفجر ليلة جمع برقم ٣٠١٥، وصححه الحاكم في المستدرك في كتاب المناسك برقم ١٧٠٣،(٤٦٤/١) كما أخرجه في كتاب التفسير برقم ٣١٠٠، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه (٢٧٨/٢).

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري في عدة مواضع منها في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة برقم ٥٧، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة برقم ٥٥.

(٤) طرف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام برقم ٢١٦٢.

(٥) طرف من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه أحمد في المسند: (٣٢١/٢، ٣٦٥) وأبو داود في كتاب العلم، باب التوقي في الفتيا برقم ٣٦٥٧، والحاكم في المستدرك في كتاب العلم برقم ٣٤٩، ٣٥٠(١٠٣/١).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه موقوفاً على معاذ بن جبل رضي الله عنه برقم ٣٠٣٦٣(١٦٤/٦) وكرره برقم ٣٤٦٩٨ (١٢٦/٧) وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة برقم ٧٩٦ (٣٦٨/١) وقد أورده البخاري تعليقاً مجزومًا به في عنوان باب في أول باب من أبواب كتاب الإيمان.

وأيضًا ما رواه مالك في الموطأ من نصح عمر لسليمان بن أبي حثمة ، أنَّ عمر فقد سليمان، في صلاة الصبح، فغدا عمر إلى السوق ــ ومسكن سليمان بين السوق والمسجد النبوي ـــ فمر على الشفاء أم سليمان، فقال لها: لم أر سليمان اليوم في الصبح!، فقالت: يا أمير المؤمنين قام الليل كله البارحة حتى غلبته عيناه عن صلاة الفجر، فقال عمر: ((والله لأن أشهد صلاة الصبح في الجماعة أحبُّ إليَّ من أن أقوم الليل كله)) [٢].. فانظر و عمر في أوج خلافته يتفقد هذا الصحابي الصغير ويذهب إلى بيت أُمِّه، ويُنَاصح أمه حتى تنقل النصيحة إلى ولدها.

وكذا لما اشتكت أم الدر داء ب إلى سلمان الفارسي ﷺ ما تجده من أبي الدر داء ﷺ، فجاء سلمان إلى أبي الدر داء، فقدم أبا الدر داء الطعام له،ولم يأكل فقال: والله لا آكل حتى تأكل، ثم أخبره، بقول النبي ﷺ: ((**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا،فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَتَيَا النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَا ذَلِكَ،فَقَالَ: صَّدَقَ سَلْمَان**)) [٣].

ومن مبدأ التناصح بين الصحابة ن ما سبق ذكر ه عندما طرق أبو موسى الأشعري ﷺ باب عمر ثلاث مرات، فلم يرد عليه، فانصرف أبو موسى الأشعري فلما فرغ عمر ﷺ أخبروه بأنه انصرف، فقال: ردوا عليَّ أبا موسى، فلما جاء قال له: ما حملك على ما صنعت ؟ . قال حديث سمعته من النبي ﷺ إذا استأذن أحدكم ثلاثًا، فإن أذن له، وإلا فليرجع، فقال عمر: لتأتيني ببينة وإلا لأفعل بك وافعل فذهب أبو موسى ﷺ إلى مجلس الأنصار، فقام أُبَيٌّ فأرسل معه أبا سعيد، ثم لحق، فقال أُبَيٌّ: يا عمر، لا تكن فظا على أصحاب النبي ﷺ، فذكر عمر ﷺ عذره في عدم علمه بهذا الحديث.

وأيضًا ما ذكره الصنعاني في سبل السلام أنَّ حذيفة ﷺ قد جلل حوائط بيته بالفرش، فقال: ما هذا أتحولت الكعبة في بيتكم ؟ أو كما قال ، فقال : غلبنا نساؤنا أو كما قال . [٤]

---

(١) حديث أبي هريرة ﷺ الذي أخرجه مسلم في كتاب الجمعة ، أول باب فيه برقم ٨٤٥.

(٢) انظر كتاب الصلاة في الموطأ في كتاب صلاة الجماعة ، باب ما جاء في العتمة برقم ٧. وأورده المؤلف في كتابه معالم في طريق طلب العلم ص ١٤٤

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ باب ٦٣ بدون عنوان برقم ٢٤١٣ ، وقال:هذا حديث حسن صحيح.

(٤) لم أجد هذا الكلام عزوًا بلفظه المذكور، وإنما وجدت قريبًا منه كلام عبد الله بن عمر لأبي أيوب رضي الله عنهما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم ٢٥٢٥٢ (٥/٢٠٤) والذهبي في سير أعلام النبلاء (٢/٤٠٨).

الشاهد: أن مبدأ التناصح بين الصحابة كان مفعلًا في جميع شؤونهم، فكانت النصيحة سببًا في إيصال الحق ، وإزالة التشاحن والبغضاء عن الأخ، ويجمع ذلك التقرب بالنصح إلى الله جلَّ وعلا.

إذًا فما ذا يُقال: فيمن أبغض أخًا له، أو إخوانًا له بمجرد إشاعة بلغت مسامعه، أو بمجرد كلام نقل إليه عنهم، لم يتثبت منه، ولم يلتمس له عذرًا، وقد يكون له عذر، وأنت تلومه. ولعل الخلاف بينك وبينه من خلاف التنوع الذي تتسع مظلة الأدلة لهذا القول.

وماذا يقال: فيمن أبغض زيدًا من الناس؛ لأنه خالف عَمْرًا، وماذا يقال: فيمن جعل فلانًا فِي دائرة الاتهام إذا لم يقل بهذا القول، هذه والله تفرق القلوب، وتمحق البركة فِي الوقت، وفِي الحفظ، وفِي الفهم، وفِي التلاوة، وفِي العبادة.

فليتق الله كل من ابتلي بهذه الخصلة الذميمة، يتقي الله في نفسه، ويتقي الله في إخوانه وليعلم أنَّ هذا المسلك يخالف منهج الصحابة ن في التناصحوفي بيان الحق ، وفِي إزالة الشحناء.

تجد أخًا لك كان يودك ويتقرب إليك صباحًا ومساءً، ثم ما بين عشية وضحاها ينقلب، فلا ينظر إليك إلا شزرًا، ولا يُنقل لك عنه إلَّا ما يسوءك، ولم يقدِّم نصيحة مع أنَّ صدر أخيه أوسع من بيته.

اعتبر أخاك صاحب معصية، صاحب منكر، وفجورأليس له حق النُّصح؟، فهذا مما يمحق البركة، ومما يضيع ويشتت الجهود. نعم إن كان الخلاف له مسوغ، ولا يحتمل هذا الأمر الخلاف؛ لأن الخلاف نوعا ن: خلاف تنوع، وخلاف تضاد.

والمشكلة: عدم فقه الخلاف، لا عدم العلم بالخلاف، وعدم فقه التعامل مع المخالف، ثم يستمر الإخوة يهجر بعضهم بعضًا؛ لأمور إذا أصلح بينهم طرف ثالث وجدت أن الشيطان قد نصب حبائله، وهذا يدل على أمرين:

الأمر الأول: قلة العلم، **والأمر الثاني**: قلة الورع والتقى؛ لأنه لا يرضي المسلم أن يضع جنبه على فراشه، وفي قلبه غل، أو حقد على أخيه المسلم، وذلك الحقد مبني على أوهام أو على تصورات وظنون، أو على إشاعات سمعها. فهذا يحصل في كل مجلس وفي كل مجتمع، وفي كل مجال.

فيا أيها الأحبة القراء: الجهود إذا تبعثرت كان من نتاجها قوة الشر و أهله، أمَّا إذا الجهـود تكاتفـت، واتسع الصدر للخلاف الذي لا يفرق الصف ولا يخالف الكلمة، فلا شك ولا ريب أنَّ هـذا ممـا يـسبب القوة، ويُعين على مواصلة المسيرة.

قال الشاعر:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا* وإذا افترقن تكسرت آحادا.

وخير من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وأنا أنصح نفسي، وكل أخ حمل في نفسه شيئًا على أخيه أن يبادره بالنصيحة، ولا يكتفي أن يكتب ورقة يثرب فيها على أخيه ويلومه ويعتقد أن هذا مبرئ لذمتهوقد يكون الحقُّ مع أخيه المجالس، كما قال الصحابة: ((اجلس بنا نؤمن ساعة)).

ومن أعظم الإيمان إزالة الشحناء والبغضاء بين النفـوس، وأن الإنـسان ليعجـب أن يبلغـه خـبر أخـوين تشاحنا وتنافرا بعد أن كانا كالظل مع الشاخص.،فإذا جمعهما أو سمع كل منهما وجـد أن الأمـر كـسراب بقيعة لا يستحق أن يذكر، فالحذر كل الحذر، من الهجران وعدم التناصح.

أيضًا تأكيدًا لهذا قد تكون تلك المُناصحة ترجع المُحبة أقوى من ذي قبل وقـد تجعـل الأخـوين أكثـر تقاربًا وأكثر تحابًّا، وقد ورد حديث مأثور عن علي ﷺ ولفظه:

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَّا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَّا عَـسَى أَنْ يَكُـونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَّا)) [1]

فالقصد: أن الإنسان إذا أبغض، فليتق الله أن يكون بغضه لأخيه، أو نقده لأخيه، أو تشنيعه لأخيه لمجـرد كلام سمعه عنه، أو نقل إليه عنه،فعليه أن يتثبت منه أولًا، ثم يكون بغضه له باعتدال لا يتجاوز في ذلـك القصد، فإن ذلك ينافي أخلاق طلبة العلم، كما أنَّه إذا أحب يحب باعتدال، ومن منهج الـصحابة رضي الله تعالى عنهم من التواضع للناس.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم ٣٥٨٧٦ (٧/٢٦٠) وأخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ في أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض برقم ١٩٩٧ ، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلَّا من هذا الوجه، وروي مرفوعًا عن علي ﷺ بسند ضعيف، والصحيح عن علي ﷺ موقوفًا من قوله ، وصححه الألباني .

الوقفة السادسة والعشرون: التواضع.

يقول ﷺ: ((**إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا،حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَـدٍ**)) [1]

ويقول عليه الصلاة والسلام: ((**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْـوٍ إِلَّا عِـزًّا، وَمَـا تَوَاضَـعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ**)) [2].

يقول الشاعر:

تواضع تــكن كالنـــجم لاح لنـــاظـــر * على طبقات الماء وهو رفيع

ولا تكن كالدخان يرفع نفسه * إلى طبقات الجو وهو وضيع

التواضع: أن يعرف الإنسان قدره عند من هو أعلم منه وأكبر منه سنًّا، وأن يعـرف الإنـسان قـدره عنـد صاحب المعروف عليه، وأن يعرف الإنسان أنه مهما بلغ من العلم والديانة، فإنَّه فقيرٌ إلى الله تعالى، وانظـر كيف فهم الصحابة ن هذا المبدأ.

هذا الصديق في أوج خلافته يأخذ بخطام أو بزمام ناقة أسامة بن زيد ﷺ، ومن أسامة عند الـصديق في سنه وعلمه وفضله ومنصبه، فالصديق أفضل الصحابة وأعلمهم مطلقًا، لَّما طلب الصحابة ن مـن أبي بكر ﷺ أن يرد جيش أسامة ويثنيه عن التوجه إلى الروم، وقد ارتدت العرب حول المدينة فقـال: والله مـا رددت جيشًا جهزه رسول الله ﷺ ولا حللت لواءً عقده رسول الله ﷺ ، وأمر أسامة أن يمضي حيـث أمـره رسول الله ﷺ فأرعبوا وأرهبوا كل من مروا بهم ممن كان في نفسهم ريبة أو رغبةٌ في الارتداد، فقاتلوا الروم فهزموهم ورجعوا سالمين غانمين [3] كما رفض تغيير قيادة الجيش بغير أسامة ﷺ وأراد تحقيق هذا الأمـر

---

(١) أخرجه مسلم في حديث طويل من حديث عياض بن حمار ﷺ في كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنَّة وأهل النَّار برقم ٢٨٦٥، وأبو داود مقتصرًا على موضع الشاهد في كتاب الأدب، باب في التواضع برقم ٤٨٩٥، وابن ماجه من حديث أنس بن مالك ﷺ في كتاب الأدب، باب البغي برقم ٤٢١٣، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم ٥٧٠.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع برقم ٢٥٨٨.

(٣) انظر/ الرياض النضرة في مناقب العشرة (٢/٤٧) والاعتقاد للبيهقي (١/٣٤٥)

فقام يقود الناقة أمام الناس، فاستحيا أسامة ﷺ وحق له ذلك في مثل هذا الموقف وأراد النزول، فقال أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ : ((والله ما أنت بنازل ولا أنا براكب)).(1)

وأيضًا من النماذج تواضع عبد الرحمن بن عوف ﷺ مع ابن عباس رضي الله تعالى عنهم ففي صحيح البخاري في كتاب الحدود، باب رجم الحبلي من الزنى إذا أحصنت (2): ((**أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ يُقْرِئُ رِجَالًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْقُرْآن، وَكَانَ مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله تعالى عنهما**)).

انظر إلى قمة التواضع، ابن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنَّة، وممن كان بينه وبين الخلافة قاب قوسين أو أدنى بعد عمر ﷺ، ومع هذا كان يجلس ليستقرئَ القرآن، من عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما.

ومثل هذا ما كان من عمر ﷺ في تقريبه لابن عباس ومسألته له، فأين هذه النماذج التي بلغت الرقي شموخًا وعزة من أناس يتضايقون أن يصحح خطأهم من ليس أصغر منهم؛ بل من أقرانهم؟، وأين من يترفعون بأنسابهم ويحتقرون غيرهم في نسبه، إمَّا من طرفٍ جليٍّ أو من طرف خفي ؟.

وأين أخلاق حاملي الشهادات بدلًا من أن تكون مهذبة لأخلاقهم جعلوها سلما يرتقون به على إخوانهم وأقرانهم، لاشك أن هذا المنهج منهج يضر صاحبه، ولا يضر غير صاحبه والعاقل من عرف قدر نفسه.

الوقفة السابعة والعشرون: الترفيه عن النفس والترويح عنها، والناس فيه ثلاثة طوائف

١ ــــ **الطائفة الأولى**: حظرت الترفيه وشددت فيه وأنكرته على من عمله.

٢ ــــ **والطائفة الثانية**: أوسعت أمر الترفيه على حساب ما هو أولى منه، فجعلت حظ نشر العلم والخير يسيرًا بالنسبة إلى الترفيه، ولاشك أنَّ الطرفين على خطأ، ما بين إفراط وتفريط، مذموم وكلتا الطائفتين مجانبة للصواب.

٣ ــــ **والطائفة الثالثة**: سلكت خير المناهج، منهج الصحابة رضي الله تعالى عنهم فقد كانوا يعطون النفس حظها ساعة، وساعة، وقد ثبت شيء من ذلك في حياتهم مع نبيهم ﷺ وبعد نبيهم ﷺ .

---

(١) هذه القصة ذكرت في توديع جيش يزيد بن أبي سفيان ﷺ فقد أوردها مالك في الموطأ (٤٤٧/٢) والطبراني في المعجم الكبير(٢٣١/٢٢) والبيهقي في السنن الكبرى(٨٩/٩، ٩٠) والهيثمي في مجمع الزوائد(٤١٣/٩).

(٢) أخرجه في حديث طويل برقم ٦٨٣٠

فالنَّبي عليه الصلاة والسلام سَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي ضُمِّرت، مِنَ الْحَفْيَاءِ، وَكَانَ أَمَـدُهَا ثَنِيَّـةَ الْـوَدَاعِ، وسَابَقَ بَيْنَ الْخَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضْمَرَ،مِنَ الثَّنِيَّةِ إِلَى مَسْجِدْ بَنِ زُرَيْقٍ، كما في صحيح البخاري ومسلم .[1].

وفي شمائل الترمذي أنَّ النبي ﷺ صـارع ركانـة ﷺ، وأفـرد الـسيوطي رسـالة سـماها ((المسارعة إلى المصارعة)) جمع فيها أحاديث كثيرة من روايات كثيرة في مصارعة النبي ﷺ لركانة ﷺ.

وأيضًا ما يتعلق بالسباحة، كان عمر رضي الله تعالى عنه فيما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في غـدير من الماء، يقول لبعض الصحابة: تعال أباقيك في الماء أينا أطول نفسًا وهم محرمون .[2]

وكانوا في الجاهلية يسمون الرجل الذي يجيد السباحة والقراءة بالكامل وكان منهم سعد بـن عبـادة، وأسيد بن حضير رضي الله تعالى عنهما.

وأيضًا كانوا يتبادحون بقشر البطيخ دعابة بينهم، كما روى ذلك البخاري في الأدب المفرد.[3] هذه الأمـور فيها ترفيه عن النفس وفيها تسلية، وإذهاب للسآمة والملل.

بل ذكر السمعاني أن عمر رضي الله عنه كان يحدث الصحابة، فإذا رآهم قـد ملـوا أو داخلهـم الملـل أخذهم في أخبار الزرع والنخل.[4]

وذكروا أيضًا في مجالس التحدث أن بعض المحدثين يُملح المجلس أحيانًا ببعض النـوادر والطرائـف ليحي النشاط فيهم، وهذا من فقه دعوة الناس، ومن فقه التربية العلميَّة، والمراد من هـذا المـنهج في هـذه القضية أن يُنظر في وسائل الترفيه، وفي وقت الترفيه.

فبعض الشبيبة وبعض من تولى تربيـة الـشباب يُغلـب هـذا الجانـب وقـصده إن شـاء الله الخير في عـدم تنفيرهم؛ لكن يقال: فيه محذور تربوي، فقد ينشئون على هذا الأمر فيصعب علـيهم أن يفـارقوه؛ بـل لـو

---

(١) أخرجاه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما البخاري في كتاب الصلاة، باب هل يقال مسجد بني فلان برقم ٤٢٠، كما كرره في كتاب الجهاد والسير ، باب السبق بين الخيل برقم ٢٨٦٨ ـ ٢٨٧٠، ومسلم في كتاب الإمارة، باب المسابقة بين الخيل وتضميرها برقم ١٨٧٠.

(٢) أخرج هذه القصة الشافعي في مسنده (١١٧/١) والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٨٩١٦ (٦٣/٥) وابن قدامة في المغني(١٣٧/٣) جميعهم عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) انظر/ السلسة الصحيحة : حديث رقم ٤٣٦.

(٤) انظر/ أدب الإملاء والاستملاء ص ٦٩.

جاءهم آخر يريد أن يعيطهم حظًا من العلم قد لا تقبل نفوسهم ؛لأنهم صنعوا على المبالغة في تلك الأمور، وهذا كله إذا كانت الوسائل الترفيهية مشروعة لا محذور فيها.

الوقفة الثامنة والعشرون: الصحابة ودور القدوة في الأمة

الصحابة يمثلون القدوة الفعلية والقولية في جميع شئونهم، فقد ذكر عنهم تعظيمهم لشعائر الله جلَّ وعلا، و تمعُّرهم وجوههم إذا انتهكت حُرمات الله تعالى، اقتداءً بنبيهم ﷺ وتبسمهم وسلامهم على بعضهم البعض، وسياستهم في التعامل مع الصغار والكبار.

يجمع هذا القدوة الفعلية والقولية، وأنت ترى هذا المنهج في كثير من أهل الخير، فترى أن بعضهم في المجلس يؤثر في الناس بأخلاقه قبل أقواله، والقدوة الفعلية قد تكون أبلغ من القدوة القولية، ومن أدلة ذلك: لما حصرت قريش النبي ﷺ ومنعته أن يعتمر عام الحديبية كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ألحوا أن يبقوا على إحرامهم علَّهم أن يدخلوا الحرم، فأخبرهم النبي ﷺ بفسخ إحرامهم، وحلق رؤوسهم؛ فكأنهم حاولوا عدم تنفيذ ذلك رغبة في الخير، فدخل عليه الصلاة والسلام، على أم سلمة مغضبًا، فقالت: أغضب الله من أغضبك، فأخبرها بما صنع الصحابة، فقالت: اخرج ولا تكلم أحدًا منهم، ثم ادع بالحلاق وليحلق رأسك، فلما حلق رأسه أقبلوا يتقاتلون يحلق بعضهم بعضا.

فشاهد القول: أن يستشعر الإنسان هذا الأمر في مجالسه العامة بين الناس، أن يكون قدوة، وأن يحفظ شخصه وشخصيته من خوارم المروءة، ومن باب أولى وأحرى وأجدر من المحاذير الشرعية، فيعاب أن يكون آخر الناس قيامًا إلى الصلاة، ويعاب أن يكون متكلمًا وقت الأذان، ويعاب أن يتكلم بسيء الألفاظ، ويعاب أن يجاري عامة النَّاس في المزاح الذي يخرج عن الحد الشرعي.

ولهذا قد ــ ليس للتوقع؛ بل للتحقيق ــ يُرد نصحه ووعظه لعدم وجود القدوة في شخصه؛لأنه كان قبل قليل مُهرجًا ساخرًا ما جف ريقه من السخرية، ثم ينقلب ناصحًا، الناس يعقلون ويدركون أن هذا المنهج منهج لعب، وتناقض وتضارب، ولا يعني هذا عدم الترويح، بل تقدَّم تقرير ذلك؛ لكن من السياسة في الدعوة أن يفرق الإنسان بين جلسائه، وبين المجالس في التبسط مع الناس.

الوقفة التاسعة والعشرون: من منهجهم حُبُّ الجهاد

حُبُّ الجهاد والاستماتة في طلبه، وطلبُ الشهادة فيه، وهذا تمثلٌ منهم واستشعار لما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، ولما سمعوا من النبي ﷺ من كثرة النُّصوص وعظيم الجزاء المترتب على فضل الجهاد، ونيل الشهادة.

والنبي ﷺ يقول: ((**لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أَحْيَا..**)).[1] هذا منه ﷺ تنويه على عظم أجر الموت في سبيل الله، والفاروق عمر رضي الله تعالى عنه مع ما له من المنزلة في الإسلام والشهادة له بالجنَّة كان يقول: ((**اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِكَ ﷺ، فقالت ابنته حفصة رضي الله عنها: أنى لك هذا ؟ يعني: كأنها تقول: إنك مشغول بقيادة الناس ومن المعلوم أن خليفة المسلمين هو الذي يسير الجيوش ويبقى في مكانه يوجه الناس ويستقبل أخبارهم، فلما قالت له: أنى لك هذا!، قال عمر: يأتي بها الله إن شاء الله**))[2]، فرزقه الله تعالى شهادة في بلد رسوله؛ بل في مصلاه ﷺ.

وصفحات التاريخ تحدثنا: أن صغار الصحابة ــ ناهيك عن كبارهم ــ سبقت هممهم أعمارهم فعمير بن أبي وقاص ؓ كان صغيرًا كانت حمائل السيف لا تنعقد عليه، وأسامة بن زيد ؓ يقود جيشًا فيه من يكبره سنًا وعلمًا وفضلًا، وعكاشة بن محصن ؓ يقود سرية الجموم، وفيها ثلة من الأنصار والمهاجرين.

فدل هذا على فضل هذه الشعيرة إلا أن المتتبع لتاريخ الصحابة مع النبي ﷺ في الجهاد يجد أن الجهاد له أوقات، وكان النبي ﷺ في سياسته للأمة قد حصل له ابتلاء حسي ومعنوي، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر:٩٧] وقال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ [هود:١٢] وأوذي أصحابه رضي الله تعالى عنهم؛ ولكنه لم يقاتل من آذوه وأصحابه؛ بل صبر وتحمل الأذى؛ لأنه لم يؤذن له بالقتال؛ لأن الوضع غير مهيأ لقتال الكفرة حينئذٍ؛ بل صبر واحتسب حتى تمكن وكثر سواد المسلمين، وأذن له بالقتال قال تعالى: ﴿ أُذِنَ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة ؓ أخرجه البخاري في عدة مواضع في صحيحه منها في كتاب التمني، باب ما جاء في التمني ومن تمنى الشهادة برقم ٧٢٢٦، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله برقم ١٨٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحج، أبواب فضائل المدينة برقم ١٨٩٠

﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] فعلم ﷺ أن الوقت مهيأ لقتال أولئك، بخلاف عندما كان في مكة.

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية / في كتابه: ((الفتاوى)) وكان ﷺ مأمورًا بالعمل بآيات الصفح في حال ضعف المسلمين،[1] ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال:٦٦].

فشرعية الجهاد وحصول الأجر عليه له شروط وضوابط، ولابد لها من قرائن أمَّا مجرد المُجازفة بالدعوة إلى الجهاد دون النظر في حال المسلمين واستعدادهم وقوتهم، فهذا خلاف الأدلة الشرعية، وكلام أهل العلم واضح في ذلك.

ومن أنواع الجهاد الذي عمل به الصحابة رضي الله تعالى عنهم جهاد النفس وأطرها على طاعة الله تعالى، والله جلَّ وعلا، يقول : ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت:٦٩] تشمل الآية جميع أنواع الجهاد.:

النوع الأول: في الذروة الأولى هو قتال الكفار لنصر الإسلام.

والنوع الثاني: جهاد الجوارح، والنفس وكفها عن معصية الله، وقد ورد في الحديث **((أَفْضَلُ الجِْهَادِ أَنْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ))**[2].

وأمَّا ما اشتهر على ألسنة بعض الناس:**((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر))** فهذا الحديث لا يصح مرفوعًا إلى النبي ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((أمَّا الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال: ــ عندما قدم من غزوة تبوك، فذكره قال: ــ فلا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله، وجهاد الكفار من أعظم الأعمال؛ بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان))[3] ثم ساق أدلة ذلك من الكتاب والسنة.

---

(١) انظر/ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٥/ ١٧٠).

(٢) لم أجده باللفظ المذكور وإنما وجدته بلفظ: **((والمجاهد من جاهد نفسه في الله))** وفي لفظ آخر: **((والمجاهد من جاهد نفسه وهواه))** عن فضالة بن عبيد ﷺ أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة برقم ٦٤٠

(٣) انظر/ مجموع الفتاوى(١١/ ١٩٧) .

وقد ذكر هذا الحديث بعض من صنف فيما اشتهر من الأحاديث على الألسنة كالعجلوني صاحب كتاب: ((كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس)).

وقال: قال الحافظ ابن حجر : : في تسديد القوس: وهو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة [عيلة] [1] ؛ لكون الجهاد يكون نصب العيان، وفي سويداء القلب بجميع أنواعه. هذا من منهج الصحابة رضي الله تعالى عنهم، شرطه أن توضع الأدلة في مواضعها.

الوقفة الثلاثون: أيضًا من أنواع الجهاد جهاد البدع و إنكارها.

وذلك بالحفاظ على الدين ونبذ كل ما خالف ما جاء به النبي ﷺ، وفي وقت الصحابة رضي الله تعالى عنه كان إنكار البدع، والإنكار على المبتدعة يبدأ من رأس القوم الخليفة، وينتهي عند أصغر واحد.

فهذا عمر بن الخطاب ﷺ لما بلغه أن صبيًّا يتكلم في متشابه القرآن،.. أسلوب بدعي في تفسير القرآن الكريم، دعاه عمر رضي الله تعالى عنه فجاء الرجل فاستثبت منه عمر، فلما أثبت عليه بدعته وشبهته ضربه بالدِّرَّةِ. [2] أي: بالعصا الصغيرة، وهي بكسر الدال.

فضربه عمر رضي الله تعالى عنه بالدرة حتى غشي عليه، فقال عمر: لا تكلموه ولا تجالسوه، ولا تبايعوه ولا تشتروا منه، فمكث على فراشه برهة من الزمن، فلما شفي جيء به إلى عمر، فضربه مر ة ثانية: فقال: عمر كما قال في المرة السابقة: لا تكلموه، ولا تجالسوه ... فلما شفي ضربه الثالثة.

وهذا من سياسة عمر فلما جيء به في المرة الرابعة: قال: يا أمير المؤمنين. قال: نعم. قال: إن كنت تريد قتلي فأحسن قتلتي، وإن كنت تريد إقناعي، فقد أذهب الله الشيطان عن رأسي قال: اتركوه، فما أحوجنا إلى درة عمر ﷺ لكف البدع والمبتدعة.

والبدع خطرها عظيم وأثرها كبير، قال البر بهاري / : ((واحذر صغار المُحدثات من الأمور، فإنَّ صغار البدع تعود حتى تصيرة كبارًا، وكذلك كل بدعة أحدثت في هذه الأمة))[3]

---

(١) انظر/ كشف الخفاء ترجمة رقم ١٣٦٢ (١/٥١١) وأمَّا الخبر المرفوع فقد أخرجه البيهقي في الزهد فيما ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء، والخطيب في تاريخ بغداد (١٣/٥٢٣) برقم ٧٣٤٥. والذهبي في سير أعلام النبلاء (٦/٣٢٥) برقم ١٣٧. جميعهم عن جابر ﷺ .

(٢). كما تطلق الدُّرَّة بضم الدال على: صُرَّةِ الذهب، والدَّرَّةِ: بفتح الدال على الحَلْبة.

(٣) شرح السنة للبربهاري [١/٢]

والـشاطبي يقـول في كتـاب الاعتـصام: ((والبدعـة إذا دخلـت في الأصـل سـهلت مـداخلتها في الفروع))[1]. وهذا الذي يقع الآن في كثير من العالم الإسلامي.

وابن مسعود ﷺ وجد قومًا يعدون حسناتهم أو يسبحون بالحصى، فقال: فيما معناه اضمنوا لي سيئاتكم، أمَّا حسناتكم فلن تضيع.[2]

وشدَّد أهل العلم في النكير على أهل البدع حتى أن ابن القيم قال / : ((واشتهر جهاد أهل العلم، والرد على أهل البدع أعظم من الرد على أهل الفواحش والمنكرات)) . والأمراض نوعان[3]:

١/ مرض شهوة: بالمعاصي على اختلاف أنواعها كالنظر والسماع والربا والزنا.

٢/ ومرض شُبهة: وهو المؤثر على المعتقد الباعث على الشك فيه، وعلى المنهج السليم، حتى قيل: إن الداعي إلى البدعة أعظم من الساكت عنها، يعني: قد يأتي رجلان كلاهما من المبتدعة ؛لكن أحدهم ساكت ما يتكلم ببدعته، والآخر ناطق بها، قالوا: الناطق شر من الساكت، وكلاهما على ضلال؛ لكن الساكت عن البدعة يأثم على بدعته التي يعتقدها في نفسه، أمَّا الداعي للبدعة فيأثم لسببين:

يأثم لسبب بدعته التي ينتصر لها في نفسه، ويأثم لسبب دعوة الناس إليها، وهذا كحديث ((**مَنْ آوَى مُحْدِثًا**)) وفي لفظ آخر: ((**مُحدَثًا**)) أي: صاحب البدعة، آواه ودافع عنه. أي: دعم بدعته بالمال لطباعة الكتب ونشرها، وإن العالم الإسلامي يزخر بالبدع العقدية، في العبادات والعادات، والمسلمون مظلومون على يد كثير من حركات الإصلاح.

ولما كُلِّمَ بعض المسلمين في بعض أرجاء العالم الإسلامي إنكارًا للبدع المنتشرة بينهم قال: ((شابت رؤوسنا ولم نسمع تحذيرًا عن بدعة، أو كفًّا لنا عنها)) اشتغل بعضُ دُعاتهم بالأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها،عن تعليم أمور الدين وأصوله، وهناك أولويات أناس لا يفقهون من العقيدة إلا عمومها، ويقعون في البدع ومع هذا كله يخطب الخطيب ويعظ الواعظ ويكتب الكاتب عن الأمور السياسية وما شاكلها، ما ذنب هؤلاء العامة المساكين ؟.

---

(١) الاعتصام (٣٥٠/١)

(٢) رواه بألفاظ متقاربة ابن وضاح في البدع والنهي عنها.

(٣) انظر/ شرح العقيدة الطحاوية (٣٦٨/١) وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية (٥/٤)

حتى قال بعضهم: إنَّ بعضهم يخطب عن أمر اقتصادي كرفع سلع أو ضريبة ويغضب ويبكي، ويكاد أن يسقط من المنبر، أو تسقط عباءته، ومع هذا كله تحته أهل الشرك، والضريح في المسجد يراه، ويرى أهل التمائم والنذور، ولم يُسكِّن متحركًا أو يُحرِّك ساكنًا، أهذه دعوة ..؟ أهذا يُصنف من الدعاة ..؟ هذا من الجهل.

لكن هناك دعاة من أهل العلم على منهج سلف الأمة أصلح الله بهم؛ لذا يقال: يركز الكلام في الأمر المهم أولاً، ثم يعرف الإنسان بأمور معاشه حتى يحذر من التفريط والإفراط، ويسلك الاعتدال في شتى الأمور.

العالم الإسلامي عامتهم فيهم خير ويحبون الخير، وهذا مشاهد فكثيرًا ممن التقي بهم من جميع طبقات المجتمع من التجار والأطباء، والمهندسين وغيرهم، عندهم تقبُّل، ويحبون الخير، وفطرهم مهيأة؛ لكن ابتلوا بأناسٍ لوثوا فطرهم وحرموهم من خير كثير.

يُذَكِّرُ هذا الكلام كُلًّا منا، مسئوليته في دعوة الناس إلى الخير، وتفريطه، وتقصيره في دعوة مثل هؤلاء، فاذهب إلى بعض قرى بلاد العالم الإسلامي؛ بل في أطرافها هذه البلاد المباركة، فإنك سترى الجهل والشرك، إذا كُلِّمُوا تجد أن الفطرة تتيقظ وتنساق مع المتكلم إذا رزق الله المتكلم صدق النية وطيب الطوية، وأن يكون كلامه عن علم.

والنَّاس فيهم خير يخبرني أحد الإخوة في السودان قائلًا قد وقفت هناك على أكثر من ضريح، بعضها أغلق وكان يفتح في كل يوم، وبعضها نبذها السدنة القائمون عليها فسألت بعض الأخوة من طلبة العلم! قلت: من المعلوم أن القائمين على الأضرحة من أشدِّ النَّاس تعصبًا، قال: نعم.

ولكنا سلكنا معهم مسلك التحبب إليهم من غير إعطاء الدَّنية في الدين، فتألفنا قلوبهم، تارةً بالاحترام، وتارةً بالمال، وتارةً بدعمهم معنويًا، يقول: فكانوا على حذر، فلما لمسوا صدقنا، ورأوا حرصنا تقبلوا دعوتنا، وقد رأيت بعيني أضرحة مغلقة والفضل لله، ثم لأولئك الفضلاء ممن استشعروا مسئوليتهم، وصح منهجهم وساروا على منهج سلفهم أثابهم الله وبارك في دعوتهم.

فالمسلمون بحاجة إلى هذه الحكمة، ومن قلة فقه بعض المصلحين أن يعظم أمورًا فِي حياة النَّاس فِي تجارتهم فِي سلعهم بينما تراه مفرطًا فِي ما يصلح عقائدهم، وأنت أيها القارئ الكريم تعلم ــ رعاك الله ــ أن البدع صارت كالجناية، ألمها يسري حتى تنهك الجسم فتهلكه.

ولهذا لا تعجب من كثرة مصنفات أهل العلم في البدع والتحذير منها فقد ذكر عبد الله بن أحمد في كتابه السنة عن أبي إدريس الخولاني قوله: ((... لَأَنْ أرى في ناحية المسجد نارًا تضطرم أحبُّ إليَّ من أن أرى بدعة لا تغير)). [1] ومثل ذلك روي من قبل عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حيث قال: ((.ولَأَنْ أرى في ناحية المسجد نارًا تشتعل فيه احتراقًا أحبُّ إليَّ من أن أرى بدعة ليس فيه لها مغير)) [2]

النَّار تفسد الأبدان؛ لكن البدع تُفسد القلوب والعقول والفطر، فَلا بد أن ينتبه إلى هذا، وبعض الناس يزعم،أن ترك الناس على بدعهم من باب التألف. وهذا ليس على إطلاقه، فتجد أن بعض الناس يعيش في مجتمع فيه أناس يجلس معهم سنين عددًا، فإذا كلمته أو نبهته قال: نخشى أن ننفرهم، إذن متى ينصحون.. ؟ متى يبين لهم... ؟ إلى متى.. ؟ مات بعضهم بتفريط أولئك ممن ضعف علمهم، وقلَّ فقههم في دعوة الناس، والمشكلة أن بعض الناس يختلق عقبات تقتضي نفرتهم. وهذا كله من تلبيس إبليس.

الناس فيهم خير ويحتاجون إلى من يدعوهم إلى الخيراً وإذا أردت البر بالناس والجهاد في هذا الوقت، فجاهد البدع والمبتدعة، فإذا اتحدت الأمة وقوي المجتمع أتى دور الجهاد الآخر.

الوقفة الحادية والثلاثون: الصبر على البلاء.

أيضًا من منهج الصحابة رضي الله عنهم الصبر على ما يصيبهم، من البلاء والابتلاء على قسمين:

١/ ابتلاء يحصل للإنسان عن طريق مشروع.

٢/ وابتلاء يحصل للإنسان عن طريق غير مشروع.

فرجل يمشي على نور وبصيرة، فتسلط عليه من ابتلاء إمَّا بسجن أو بضرب أو بحرمان كقطع رزق أو ما شاكله فما دامت دعوته على بصيرة،موافقةً منهج سلف الأمة فلا خوف عليه بل هو على خير عظيم.

---

(١) انظر/ كتاب السنة (١٦٦/٢) برقم ٦٣٢، وتاريخ دمشق (١٦٨/٢٦) ومختصره (٩١/٤).

(٢) انظر/ كتاب السنة لمحمد بن ناصر المروزي (٦٧/١) برقم ٦٦.

أمَّا أن يتصرف تصرفات ليس لها زمام ولا خطام فعساه أن يسلم من الإثم إذا أُبتلي، ولهذا الخوارج كانوا أشدَّ الناس عبادة، قال عنهم النبي ﷺ: ((**تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ...**)) ومع هذا قاتلهم الصحابة، وحذروا منهم ومن منهجهم، قال عليه الصلاة والسلام: ((**إِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ وَثَمُودَ**)) [1] مع أنَّ غيرتهم على الدين ؛ ولكن مع ذلك فهم من أبعد الناس عن الأجر في هذا الأمر.

وبهذا تعلم أن أجر الابتلاء وثوابه لا يناله المكلف إلا إذا كان عمله على بصيرة سواء كان في الجهاد. أو في أي عبادة، واقرأ قوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ** ﴾ [الغاشية: ٢ ــ ٣] خشوع وعمل ونصب، والنتيجة ﴿ **تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً** ﴾ [الغاشية: ٤] لم..؟؛ لأنَّ هذا الخشوع، وهذا العمل، وهذا النصب ليس على بصيرة.

وانظر أيضًا لما جاء النفر الثلاثة رضي الله تعالى عنهم من شباب الصحابة وقد حرموا على أنفسهم طيبات أحلت لهم، وأرهقوا أنفسهم بتكاليف لم يشرعها الله تعالى خشي عليهم النبي ﷺ من الانزلاق في أمور مُخالفة فحذَّرهم، وأنكر عليهم علانية قائلًا:((**مَا بَالُ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ**)) ما سماهم؛ بل ستر عليهم لجهلهم رضي الله تعالى عنهم؛ لكنه أنكر وبالغ ((**أَمَا وَالله**)) والقسم للتأكيد، و إلا فالرسول ﷺ أصدق البشر قولًا فهو الصادق المصدوق ((**أَمَّا وَالله**)) أُنظر المؤكدات: ((**أَنِّي لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، وَلَكِنِّي أَصُومُ، وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**)) [2] مع أنهم أرادوا العمل ؛لكن هذا العمل الذي سيجلب عليهم التعب لا يؤجرون عليه ؛لأنه يخالف سنة النبي ﷺ.

الوقفة الثانية والثلاثون: فوائد تربوية من ذكر القصص.

القصص في القرآن الكريم وفي السنة النبوية: جاء كثيرًا على وجوه متنوعة؛ بل ذكر علماء علوم القرآن الكريم أنَّ القصة في القرآن قد تتكرر على أكثر من وجه فقصة موسى عليه السلام مع فرعون جاء

---

(١) جزء من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة برقم ٣٦١٠، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفتهم برقم ١٠٦٤.

(٢) متفق عليه من حديث أنس بن مالك ﷺ أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح برقم ٥٠٦٣، ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه... برقم ١٤٠١.

ذكرها في سورة البقرة إجمالًا مع بني إسرائيل، وجاء ذكرها في سورة الأعراف، وفي يونس، وفي هود، وفي الشعراء، وفي الصافات، وفي الزخرف، بل جاء ذكرها في قصار السور، كسورة النازعات، وفي سورة الأعلى، يقول علماء القرآن الكريم: إنَّ ذكر القصص في القرآن له حِكَمٌ كثيرةٌ، من أعظمها ما ذكره الله جلَّ وعلا من التثبيت والتأييد لنبيه ﷺ ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود:١٢٠].

ويقول جلَّ وعلا: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف:٣] يعني: أحسن القصص هي ما جاء في القرآن الكريم، خلافًا لمن ظن أن أحسن قصة هي قصة يوسف، لهذا إذا قرأ بعضهم في مطلع سورة يوسف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣] قال: قصة يوسف هي أحسن قصة، وقد بين شيخ الإسلام أنها من أحسن القصص لما فيها من المعاني والفوائد التي تصلح للدين والدنيا، أمَّا القول بأنها وحدها هي أحسن القصص فذلك ظن خاطئٌ ؛ بل هي مما قصه الله ومما يدخل في أحسن القصص.[1]

إذا علمنا هذه المقدمة، فإنَّ نتائجها أنَّ الفائدة من القصة إذا ذكرت إنَّما تعود بحسب أفرادها، ولهذا يخطأُ كثير من الوعاظ إذا قام يعظ الناس ويذكر قصصا قد يكون بعضها لا زمام له ولا خطام، ولو أنه اكتفى بما جاء في القرآن الكريم وذكر
الناس به أو بما صح في السنة وذكر الناس به، أو بما ثبت عنده بالخبر اليقين، وذكر الناس به، لكان في ذلك خير كثير إلا أن بعض أولئك الوعاظ وفقهم الله تعالى للعلم النافع والعمل الصالح جنح إلى ذكر قصص وجعلها في كل موعظة كأنها آية منزلة ولاشك ولا ريب أنَّ هذا من الشطط أو من الخلل في المنهج الوعظي الذي ربى النبي ﷺ عليه أصحابه، يُقال: أعظم القصص بعد أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما جاء فِي أخبار الصحابة ن ؛لأنَّ الأنبياء هم أفضل بشر وطئ الأرض، والصحابة: أفضل جيل بعد الأنبياء.

(١) انظر/ مجموع الفتاوى (١٨/١٧ ـ٢٠) ومنهاج السنة (٣١٩/٥).

الوقفة الثالثة والثلاثون: بعض المعالم في أوقات الفتن.

وهذه بعض المعالم في أوقات الفتن والنوازل ينبغي التمسك بها لنجاة الفرد والأمة كلها فهي معالم مستقاةٌ من مشكاة الكتاب والسنَّة وهي:

المعلم الأول: **لزوم الدعاء والضراعة** إلى الله جلَّ وعلاأن يهديك إلى ما اختلف النَّاس فيه من الحقِّ بإذنه، وبخاصة إذا كنت قدوة يأتم النَّاس بقولك، وينظرون إلى شخصك، ويُصغون إلى كلامك ويقرءون كتاباتك، فسل الله جلَّ وعلا أن يهديك لِمَا اختلف النَّاس فيه،فأنت تعلم أن نعمة الهداية من أعظم نعم الله تعالى على عبده، ولهذا امتَنَّ الله على هذه الأمة، فقال تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]

وكان عليه الصلاة والسلام يتحرى أوقات الإجابة فيدعو في استفتاح صلاة الليل بقوله: ((اهْدِنِي لِمَا اختلفَ فيهِ مِنَ الحقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) .[1] فالإكثار من هذا الدعاء محمودٌ، وبخاصة في أوقات الفتن والنوازل.

المعلم الثاني: كلُ أمر بقدر أي: أنَّ كل ما يحدث من أمر في هذه الدنيا، فهو بقضاء الله تعالى وقدره، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر:٤٩].

ولهذا قال أهل الْسُنَّةِ رحمهم الله تعالى: مراتب القدر أربع لا يسلم إيمان امرئٍ مؤمن إلاَّ بالإتيان بها جميعًا وهي: ١ــ العلم. ٢ ــ والكتابة. ٣ ــ والخلق. ٤ ــ والمشيئة. فكل أمر بقدر الله، و علمه السابق، وكتابته له، وخلقه إياه بمشيئته النافذة وقد سبق ذكر أدلة ذلك، فيجب الإيمان بالمراتب الأربع جميعها.

المعلم الثالث: أَنَّ مقادير الله تعالى لا تكون إلاَّ لحكمة بالغة،أمَّا أفعال الخلق فلا تخلوا من العبث والنسيان والظلم والحيف، أمَّا أفعال الله تعالى فكُلُّها لحكمة وكُلُّها عدلٌ، ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥] لا والله يا ربنا؟: ﴿ أَيَحۡسَبُ

(١) أخرجه مسلم من حديث عائشة ﵂ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم ٧٧٠.

﴿ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦] لا والله لم يخلق النَّاس عبثًا، ولم يترك الإنسان سُدًى، إذن كل أمر يفعله الله تعالى فهو لحكمة.

المعلم الرابع: أَنَّ فِي تقدير الله تعالى للأشياء حِكَمًا بالغةً ولو كان الأَمرُ مكروهًا فِي نظر النَّاس، فقد تقع مصيبة أو كارثة،أو نازلةٌ عظمى يكرهها الناس بطبعهم؛ لكن مع ذلك كلِّهِ،يكون لله تعالى فيها حِكَمًا، ومن أدلة هذا آية سورة الروم: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ ما السبب يا ربنا .. ؟ ﴿ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾ لِماذا يا ربنا؟ ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ ﴾ وهل من حكمة يا ربنا ؟ ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١] من غيهم إلى رشدهم، ومن معصيتهم إلى طاعتهم.

وهنا مبحث يستحق أنْ يُذكر اختلف أهل العلم أيهما أفضل: الأمر الذي تُعقل حكمته أو الذي تخفى حكمته ؟ مع التسليم المطلق بأنَّ اللهَ تعالى لا يفعل إلاَّ لحكمة، ولا يشرع إلَّا لحكمة؟ لكن هناك أمورًا وعباداتٍ حِكمتُهَا قد تظهر وهناك عباداتٌ حكمتها قد تخفى، فمثلاً: حرَّم اللهُ تعالى قطيعة الرحم لما فيها من وجود الشحناء والبغضاء، وحرَّم اللهُ تعالى الزنا لما فيه من اختلاط المياه ولما فيه من ضياع الأنساب وانتهاك للأعراض.

وأوجب الله تعالى الصِّدقَ لِمَا فيه من صلاح الدين والدنيا والآخرة، فحكمة مثل هذه الأشياء ظاهرة ؛لكن في بعض الأمور قد تخفى الحكمة من تشريعها كأعداد الصلاة مثلاً لِمَاذا كانت صلاة الظهر والعصر أربع كعات والقراءة فيهما سريَّة والفجر ركعتان جهريتان، والمغرب ثلاث ركعات الأولى والثانية جهريتان، والثالثة سرية، والعشاء أربع ركعات الأولى والثانية: جهريتان، والثالثة والرابعة: سريتان.

وقد التمس بعض الشراح حِكَمًا لمثل هذه المسائل؛ لكن لو أنَّ الحكمة خفيت علينا لم يجب علينا علمها، ولا البحث عنها؛ لأن الله تعالى: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، ولهذا يقول بعض الأصوليين، من الخطأ في العلم أن يقول السائل: ما الحكمة في كذا؟. ومن الخطأ في الجواب: أن تقول الحكمة كذا، والصواب: أن تقول: من الحكمة، أو لعل من الحكمة كذا...

الوصايا

وأختم هذا الكتاب ببعض الوصايا التي أسأل الله أن ينفع بها قائلها وسامعها: **الوصية الأولى: عموم المسئولية:**

١/ يجب على كل واحد منا أن يبلغ العلم والخير إلى كل أحد يستطيعه بادئًا بإصلاح نفسه، وإصلاح بيته، وإصلاح زوجه، وأولاده، وإخوانه، ومجتمعه عامةً، وأن لا يدخر وسعًا في إيصال الخير إلى الناس، وأن يحتسب ذلك عند الله تعالى، وأن يصدق في ذلك، وسيرى من الله تعالى ما يسره.

الوصية الثانية: المحاسبة:

٢/ محاسبة النفس كم مضى عليك وأنت على طريق الخير؟، ماذا قدمت لنفسك، وماذا قدمت لبيتك، وماذا قدمت لمجتمعك ؟. وكلما كان الإنسان محاسبًا لنفسه وضحت له أخطاؤه، نقل عن الفضل بن يحى أنه قال: ((ينبئ عما في نفسه في ثلاث مواضع: إذا اضطجع على فراشه...)).(١)

وللإمام ابن القيم ــ رحمه الله تعالى ــ كلام سديد عن محاسبة النفس، فإنه لما تكلم عن الأسباب المنجية من عذاب القبر، قال: ((ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يجدد له توبة نصوحًا بينه وبين الله فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة، فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ، استيقظ مستقبلاً للعمل مسرورًا بتأخير أجله حتى يستقبل ربه، ويستدرك ما فاته، وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم فمن أراد الله به خيرًا وفقه لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله)) .(٢)

فليتفقد كل منا نفسه كم مضى من السنون والإنسان على خير كم حصل في هذا السنين من العلم ؟ وكم جمع من العلم ؟ فبعض الناس يحصل في سنة واحدة ما لا يحصل غيره في عشر سنين. وبعض الناس يبقى على خطئه منذ أن يلزم طريق الخير حتى يشيب رأسه، وحتى يموت يبقى على خطئه؛ بل على أخطائه مستغنيًا عن العلم وعن سماعه، مع اقتناعه بتصوراته الذهنية، وبناء الأفكار عليها، وعدم التنازل عنها

---

(١) انظر/ الفرج بعد الشدة للتنوخي (٣٠٨/١).

(٢) انظر/ كتاب الروح المسألة العاشرة الأسباب المنجية من عذاب القبر(٣٤٥/٤).

فكم مضى من أعمار الناس وهولا يزال والناس يحسنون الظن بـه، ويـستفتونه ولكـن لـو نظـر إلى نفـسه بصدق وتجرد علم أنه بالنسبة لظن الناس لا يزال عاميًا ؛لأنه لم يؤسس نفسه على منهج علمي.

الوصية الثالثة التأمل في المنهج:

٣/ ينظر الإنسان في سيرته بين الناس، فصحابة رسول الله ﷺ قد وات في جميع شـئونهم قـال تعـالى حاكيًـا عـن عبـده ورسـوله عيـسى عليـه الـصلاة والـسلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١] كما أن نبينا محمدًا عليه الصلاة والسلام مبارك في زمانه، ومكانه، ومـع أصـحابه، وفي جميـع شئونه، فلينظر الإنسان أثره في بيته ومسجده ومكتبه وكليته في كل مكان.

الوصية الرابعة: اختيار الرفقة، وهذه الوصية من الأهمية بمكان:

٤/ انظر إلى جلسائك ولا تحكمك العاطفة، بعض الجلساء كالداء أو كالسُم الزعاف، ولو كان مـن أهل الخير ؛ لأنه يعينك على الشر ويغريك إلى المعصية من الغيبة، والنميمة، والقـدح في أعـراض النـاس، من علماء وحكام، وأقران يتفكه بذلك في المجالس، فهذا لا خير فيه، ويُدعى له بالهداية ويُنصح؛ ولكن لا يكون جليسًا لك: ((قل لي من تجالس أقول لك من أنت)).

إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم * ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

ويقول الآخر:

وصـاحب من الإخـوان كـل ممـكـن * له فضل عقل وهو في الناس خامل

وخير من قولي الشاعرين قول النبي ﷺ : ((**مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحُ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَـافِخِ الْكِيرِ**)). [1]انظر الفرق ــ رعاك الله ــ، وانظروا شباب الإسلام إلى جلسائكم، من الجلـساء مـن يُعينـك على الطاعة ويبصرك بأخطائك، وينبهك إلى التقصير، ومن الجلساء من يزيـدك وهنًـا إلى وهـن؛ بـل إن لم يكن مثبطًا لك ما كان دافعًا لك إلى الخير، فهذا الجليس ينصح فإن استجاب فهذا المطلوب، وإن أعـرض فلا يضر إلا نفسه، وابحث عن غيره، ولا تحكمك العاطفة، فالإنـسان يحـرص عـلى دينـه؛ لأن هـذا قـد يجرفك معه في مصائب حسية أو معنوية.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب في العطاروبيع المسك برقم ٢١٠١، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء برقم ٢٦٢٨.

يقول لي أئمة المساجد: جالست شابًا عرفته من مدة قصيرة شهرا أو شهرين فنبهني إلى أمور ظاهرة لاحظها عليَّ، يقول: فلا أدري من أيهما أعجب من ورع هذا الشاب أو إهمال من كنت أجالس من سنين، وهم يرون خطئي ولم يتفضل أحد منهم بنصحي وتنبيهي. فاحرص على جليسك إن كان يُفيدك علمًا ويعينك على طلب العلم ونشر الخير، وبر الوالدين،.والمسابقة إلى الخيرات فعض عليه بالنواجذ، أمَّا إذا كان مجلسه القدح والغيبة والنميمة، والتفكه في أعراض الناس، وإشغال الوقت بما لا ينفع في الدنيا، ولا يفيد في الآخرة، فاحرص رعاك الله على طلاقه طلاقًا بائنًا إلا إذا رجع إلى رشده.

الوصية الخامسة: طلب النصح من الآخرين:

٥/ طلب النصح من الآخرين: بعض الناس قد يجالس طلبة علم فيطلب منهم كل شيء من شفاعة وما شاكلها إلا النصح ؛ لأنه يتحرج من سماع النصح، وهذا مسكين قد حرم نفسه خيرًا كثيرًا، فاطلب النصح ممن تثق في عقله ودينه.

وكلما كانت النصيحة ممن يوثق بعقله ودينه كلما كانت أنفع للمنصوح ومن سديد المقال في هذا الموضوع ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته إلى ملوك النصارى: فإن كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان..)). [1] فانظر كيف خصَّ شيخ الإسلام طلب البحث والنصح ممن يوثق بعقله ودينه.

واحرص رعاك الله أن تطلب النصيحة وتقبلها ففيها تقويم السلوك والأعمال وتصحيح الأخطاء.

الوصية السادسة: إزالة الجفاء بالتناصح والتوادد.

٦/ وأيضًا كذلك انظر من تعادي من المسلمين من أقرانك ومن جيرانك ومن أقاربك، فكم يشتكي بعض الإخوة من جفوة بعض إخوانهم الذين كانوا بالأمس على أمر واحد يضحكون سويًا ويسافرون سويًا... ثم أصبحوا متفرقين؛ بل ينظر أحدهم إلى الآخر نظرة العدو المُتربص وهذا جهل يدل على قلة في العلم وضعف الدين،.وإلا فبأي حق تهجر أخاك إلا إذا علمت تفريطه، أو انحرافه، فإن هذا يتقرب إلى الله تعالى بنصحه، فإن أصر وإلا يحذَر ويحذَّر منه؛.لكن المصيبة أن يكون الخلاف خلاف تنوع، ثم تجد

---

(١) انظر/ رسالة من ابن تيمية إلى ملك قبرص ص ٢٦.

النظرات الحادة، والحقد الدفين عياذًا بالله، والتشفي والفرح بالمصيبة إذا حلت بمن خالفه، وهذا يدل على مرض في القلب نعوذ بالله من ذلك، ومثل هذا في الغالب يحرم من بوادر التوفيق الإلهي.

الوصية السابعة: الحرص على الدعاء.

٧/ فالدعاء: يفتح أبوابًا مغلقة من الخير، ويغلق أبوابًا مفتوحة من الشر والخلل فليدع الإنسان بقلب صادق، مستشعرًا عظمة من يدعوه، وسيرى من الله تعالى ما يسره، فعلى العبد المؤمن التسلح بدعاء الله واللجوء إليه بإخلاص وثقة فيه سبحانه.

الوصية الثامنة: والأخيرة في الوقت.

٨/ تنقضي الأوقات، وتذهب السنين وتعجب؛ بل والله ترثي لحال شباب صالحين سنوات كثيرة، فإذا رأيت أمورهم ورأيت أفعالهم وأقوالهم، تقول: كيف إلى هذه الساعة ما صحح العلم أخطاءهم، والسبب أنهم ابتلوا بمن رباهم، و نشأهم بغير علم، فمن تولى أمرهم وتوجيههم كان على غير منهج علمي سليم،عَلِمْ هؤلاء مساكين؛ لكن مما يحسن التنبيه عليه هاهنا أنه لا يفهم من هذا كما يقول بعض الناس: هل تريد من كل أحد أن يكون طالب علم ؟ لا. هذا لا يكون، لكن لاشك أن الكمال البشري المحدود في الجثو عند العلماء بالركب. لكن قد يفتح الله تعالى على زيد بقريحة شعرية، وقد يفتح الله تعالى على عمرو بفصاحة لسان على المْنبر، وقد يفتح الله تعالى على خالد بقلم سيَّال يتدفق كتابةً وقد يفتح الله تعالى على عبد الله بمواعظ تؤثر في القلوب، يقال في هؤلاء أنتم على خير. لكن أيها الشاعر إذا نظمت قصيدة، فلا تُلْقِهَا إلا بعد أن تعرضها على طالب علم حتى ينقحها لك، و أنت أيها الواعظ: إذا أردت أن تعظ النَّاس، فلا تتكلم في أحكام عقدية وشرعية إلا بعد أن تسأل طلبة العلم، بدءًا بكبار العلماء، فإن لم يتيسر فمن دونهم. وأيها الكاتب: اكتب لكن بعلم ولا تخض فيما ليس لك به علم، وأنت أيها الخطيب، اخطب وألهب مشاعر الناس شريطة أن تكون الخطب مبنية على منهج علمي ليس مجرد حماس وتهييج الناس، لا يكفي هذا نعم لكل مقام مقال، لكن بعض الناس يهيج الناس في أمر لا يستحق، تراه لا يعرج على أمور يستحق أن يجعل لها نصيب الأسد من وقته،

قال ابن هبيرة :

الوقت أنفس ما عنيت بحفظه *** وأراه أسهل ما عليك يضيع [1]

---

(١) انظر/ طبقات الحنابلة (١/١٨١) وكتاب معالم في طريق طالب العلم للمؤلف ص ٢٥٨.

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: ((**لَا تَزُولَا قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ**)) وذكر منها: ((**وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ**)).[1]

فاحرص على طلب العلم، واستثمار الأوقات، واستغلالها في الخير، فمن الظلم والله، أن يُربى الشباب وتُهدر أوقاتهم في أمور مباحة وعساهم ألا يوغلوا، فيدخلوا في أمور منهي عنها. ترثى لحال بعض الإخوة تجد فيه الصفاء، والحب والخير؛ لكن مسكين،يجهل أو لويا ته، قد لا يحسن عمل ما تبرأ الذمة به من أحكام الصلاة وما شاكلها، ولاشك أن هذا من ظلمهم، وهذه العينة أن يسأل القائمون عليها أنفسهم، وأنت أيها الشاب انظر إلى ترتيبك، وانظر إلى إخوانك الآخرين، من استفاد أنت أم هم ؟ سترى الفارق . نسأل الله جلَّ وعلاَّ أنْ يوفقَ شَبابَ المسلمين إلى كل خير، وأن يجعلهم دعاة إلى السنَّة على علم وبصيرة، ويكفيهم شر الحساد، وشر أعداء الإسلام من الداخل والخارج، كما نسأل الله تعالى أنْ يُبارك في الجهود، وأنْ يعز الإسلام وأهله، وأن يذل الشرك وأهله، وأن يجعلنا وإيَّاكم مباركين أينما كنا، وأن يدفع عنَّا خاصة وعن بلاد المسلمين عامة شر الأشرار وكيد الفجار، وأن يجعل كلمة الإسلام والسنَّة مرتفعة عالية، وأن يخذل كلمة الكفر والبدعة. كما نسأل اللهَ جلَّ وعلاَّ أن يوفق شعوب المسلمين إلى ما فيه صلاح العقائد، وصلاح الجوارح، وصلاح الأعمال، وأن يوفق حكام المسلمين إلى ما فيه صلاح العباد والبلاد، إنَّه تعالى سميعٌ قريبٌ مجيبٌ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخاتمة

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، فبتوفيق الله ومنه تم الفراغ من تبييض كتاب دروس ومواقف دعوية منهجه من سير الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

فإنهم خير من طبق أمر الله وأمر رسوله ﷺ في حياتهم امتثالًا للطاعات واجتنابًا للمعاصي والسيئات، وأحق من تعرف سيرهم ومنهجهم، فهم قد تمسكوا بالإسلام العظيم الذي ضمن لأهله الظفر والفوز في الدنيا والآخرة، فكان لِزامًا على كل مسلم، وبخاصة على طلبة العلم، أن يحكموا العلم الشرعي في أقوالهم

---

(١) قد سبق تخريجه.

وأفعالهم، وفِي جميع تصرفاتهم، خصوصًا في أوقات الفتن والنوازل، وذلكم لأنَّ شباب الإسلام هم القدوة في بيوتهم ومساجدهم، وفي أماكن عملهم؛ بل وفي كل مكان حلوا فيه أو ارتحلوا عنه، وأوقات الفتن والنوازل من أعظم الأوقات في بيان أثر شباب الإسلام سلبًا أو إيجابًا على مجتمعاتهم.

وفق الله الجميع وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس الموضوعات